

ففي الإصطبل

كامل كيلاني



في الإِصْطَبَلِ

تأليف
كامل كيلاني



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شيبث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

رسم الغلاف: ورود الصاوي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٢٤٩ ٥

صدر هذا الكتاب في تاريخ غير معروف.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	تَمْهيد
٩	مَسَلَّةٌ (كُومِدْيَا) فِي الإِصْطَبَلِ
١١	شُخُوصُ الْمَسَلَّةِ (أَشْخَاصُ الْكُومِدْيَا)
١٣	مَسَلَّةٌ (كُومِدْيَا) فِي الإِصْطَبَلِ
٣١	عَالَمُ الإِصْطَبَلِ
٣٣	الفصلُ الأوَّلُ
٣٧	الفصلُ الثَّانِي
٤٣	الفصلُ الثَّالِثُ
٥١	الفصلُ الرَّابِعُ
٥٩	الفصلُ الْخَامِسُ
٦٧	الفصلُ السَّادِسُ
٨٣	كَلِمَاتُ الْقِصَّةِ

تمهيد

يَسْرُنِي أَنْ أُهْدِيَ إِلَيْكَ — أَيُّهَا الْقَارِئُ الصَّغِيرُ — طَائِفَةٌ مِنَ الْخَوَاطِرِ الْمُبْدَعَةِ الَّتِي خَلَفَتْهَا لَكَ مُنْشَأَةُ هَذِهِ الْقِصَّةِ.

وَهِيَ — فِيمَا حَدَّثَنَا الثَّقَاتُ الْأَثْبَاتُ (الْأُمَنَاءُ الْمُؤَثَّقُونَ بِهِمْ) مِنَ الرُّوَاةِ الَّذِينَ نَقَلُوا عَنْهَا تِلْكَ الْخَوَاطِرَ الشَّائِقَةَ — فَرَسٌ مِنْ أَذْكَى الْأَفْرَاسِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي يَعْتَزُّ عَالَمُ الْإِصْطَبْلِ كُلُّهُ بِنَجَابَتِهَا وَأَصَالَتِهَا، وَتَفَخَّرُ الدَّوَابُّ جَمِيعًا بِطِيبِ عُنْصُرِهَا، وَشَرَفِ أُرُومَتِهَا (كَرَمِ أَصْلِهَا، وَطَهَارَةِ مَنْبَتِهَا).

وَإِنَّ «أَعْوَجَ» أَبَا الْأَفْرَاسِ الْكَرِيمَةِ، لَيَفْخَرُ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الْفَرَسِ النَّجِيبَةِ، كَمَا يَفْخَرُ أَبُوْنَا «أَدَمُ» بِالنُّجَبَاءِ مِنْ أَبْنَائِهِ وَبَنَاتِهِ.

وَقَدْ نَشَأَتْ «أُمُّ سَوَادَةَ» بَطْلَةً قَصَّتِنَا — وَاسْمُهَا: «قَسَامَةُ» — فِي بَعْضِ بِلَادِ الرِّيفِ، كَمَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ خَوَاطِرُهَا الْمُعْجَبَةُ.

حَدَّثَنَا صَدِيقُهَا «أَبُو زِيَادٍ» بِالْقِسْمِ الْأَوَّلِ مِنْهَا، وَعُنْوَانُهُ: «مَسَلَاةٌ (كُومِدْيَا) فِي الْإِصْطَبْلِ»، كَمَا حَدَّثَهَا بِالْكَثِيرِ مِنْ طَرَائِفِ الْقِسْمِ الثَّانِي، وَعُنْوَانُهُ: «عَالَمُ الْإِصْطَبْلِ».

ثُمَّ أَبْدَعَ زَمِيلُهَا: «دَهْمَانُ» فِيمَا رَوَاهُ لَهَا مِنْ أَخْبَارِ صَاحِبِهِ؛ «أَبِي تَوْلَبٍ» الَّتِي خَتَمَتْ بِهَا «قَسَامَةُ» هَذِهِ الْفُصُولَ.

وَلَسْتُ أُذِيعُ (أُظْهِرُ) سِرًّا إِذَا قُلْتُ لَكَ: إِنَّ قَسَامَةَ — وَكُنْيَتَهَا «أُمُّ سَوَادَةَ» كَمَا عَرَفَتْ — قَدْ أَوْصَتْنِي بِإِهْدَاءِ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ إِلَيْكَ، لِمَا رَأَتْهُ فِيكَ مِنْ حُبِّ الْقِرَاءَةِ، وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْإِطْلَاعِ، وَالْمُنَابَرَةِ عَلَى التَّحْصِيلِ. فَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِي تَلْبِيَةِ إِشَارَتِهَا، وَإِنْجَازِ وَصِيَّتِهَا.

وَلَا عَجَبَ أَنْ تَعْهَدَ إِلَيَّ «قَسَامَةً» بِذَلِكَ، بَعْدَ مَا عَرَفْتَهُ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْعَزِيزُ — مِنْ
مَزَايَاكَ النَّادِرَةِ، وَخِلَالِكَ النَّبِيلَةِ الَّتِي حَبَّبَنَكَ إِلَى نَفْسِهَا.
فَأَنْتَ — فِيمَا تَعْلَمُ «قَسَامَةً»، وَفِيمَا أَعْلَمُ أَنَا — جَدِيرٌ بِكُلِّ خَيْرٍ. وَقَدْ مَيَّزَكَ اللَّهُ —
بَيْنَ أَتْرَابِكَ وَلِدَاتِكَ (بَيْنَ أَقْرَانِكَ الَّذِينَ هُمْ فِي مِثْلِ عُمْرِكَ) — بِمِثْلِ مَا مَيَّزَ بِهِ «قَسَامَةً»، بَيْنَ
أَتْرَابِهَا وَلِدَاتِهَا، مِنْ كَرِيمِ الْخِصَالِ، وَنَبِيلِ الْمَزَايَا، وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ.

وَلَا شَكَّ عِنْدِي فِي أَنَّكَ شَاكِرٌ لِهَذِهِ الْفَرَسِ الْفَتِيَّةِ (الشَّابَّةِ الْقَوِيَّةِ) هَدِيَّتِهَا النَّفِيسَةِ، قَادِرٌ
(مُقَدِّرٌ) لَهَا ثِقَتَهَا فِيكَ، وَإِعْجَابَهَا بِكَ، مُنْتَفِعٌ بِمَا قَدَّمَتْهُ إِلَيْكَ مُبْدِعَةٌ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ مِنْ
سَدِيدِ الرَّأْيِ، وَبَارِعِ الْمُلَاحَظَةِ، وَصَادِقِ التَّوْجِيهِ، وَعَمِيقِ التَّفَكُّيرِ.

وَسَتَكُونُ فِي قَابِلِ أَيَّامِكَ — إِنْ شَاءَ اللَّهُ — عَظِيمًا بَيْنَ الرَّجَالِ، مَا دُمْتَ فِي حَاضِرِكَ عَظِيمًا
بَيْنَ الْأَطْفَالِ.

مَسَلَّةٌ (كُومِدْيَا) فِي الْإِصْطَبَلِ

شُخُوصُ الْمَسَلَةِ (أَشْخَاصُ الْكُومِدِيَا)

هَؤُلَاءِ جَمِيعًا فِي آخِرِ الْإِصْطِبَالِ:

الْحَنَسَاءُ: بَقَرَةٌ جَمِيلَةٌ، سَمَرَاءُ الشَّعْرِ.

الْجُودَرَةُ: عَجَلَةٌ ظَرِيفَةٌ، وَهِيَ بِنْتُ الْحَنَسَاءِ.

أُمُّ الْأَشْعَثِ: عَنَزٌ مُرْتَفَعَةُ الْقَرْنَيْنِ، طَوِيلَةُ اللَّحْيَةِ، مَوْفُورَةُ النَّشَاطِ، دَائِمَةُ الْجَرِيِّ، لَا تَكَادُ تَسْتَقِرُّ فِي مَكَانِهَا لَحْظَةً.

أَبُو بُجَيْرٍ: ابْنُ الْعَنَزِ، وَهُوَ جَدِّي فِي مُقْتَبَلِ شَبَابِهِ.

أُمُّ فَرْوَةَ: نَعْجَةٌ بَيَضَاءُ.

الطَّلِيُّ: حَمَلٌ (خُرُوفٌ فَتِيٌّ) مُجَعَّدُ الشَّعْرِ، وَهُوَ ابْنُ تِلْكَ النَّعْجَةِ.

أَبُو دُلْفٍ: خِنْزِيرٌ، مَكْفَتُ الْأَنْفِ (أَنْفُهُ مُتَضَامٌ: مُتَكَبِّبٌ).

هَذَانِ فِي جَانِبٍ مِنَ الْإِصْطِبَالِ:

أَبُو زِيَادٍ: حِمَارٌ.

لَا حِقُّ: جَوَادٌ، جَمِيلٌ، أَسْمَرٌ.

فِي الْإِصْطَبَلِ

فِي خَارِجِ الْإِصْطَبَلِ أَمَامَ الْبَابِ:

ابْنُ وَازِعٍ: كَلْبُ الْحِرَاسَةِ.

مَسَلَاةٌ (كُومَدِيَا) فِي الْإِصْطَبَلِ



أَبُو زِيَادٍ (الْحِمَارُ يُخَاطِبُ الْعَنْزَ): «حَذَار — يَا أُمَّ الْأَشْعَثِ — وَإِيَّاكَ أَنْ تَتَمَّائِي فِي هَذَا الْعَبَثِ. لَقَدْ أَرْعَجْتَنَا بِجَلَاغِكَ هَذِهِ ... وَكَأَنَّمَا نَسِيتِ مَا كَابَدْتُهُ مِنَ الْعَنَاءِ طُولَ الْيَوْمِ. أَلَا فَلْتَعْلَمِي — إِنْ لَمْ تَكُونِي تَعْلَمِينَ — أَنَّنِي قَضَيْتُ نَهَارِي كُلَّهُ عَدَوًا (جَزِيًّا) بِلَا رَاحَةٍ، وَقَدْ بَرَّحَ بِي التَّعَبُ (أَذَانِي أَدَى شَدِيدًا)، فَأَصْبَحْتُ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى النَّوْمِ، فَالْبَيْتِي (امْكُثِي) فِي مَكَانِكَ هَادِئَةً سَاكِئَةً، وَاحْذَرِي أَنْ تُكْذِرِي عَلَيَّ صَفْوَ مَنْامِي بَعْدًا!»



أُمُّ الْأَشْعَثِ (الْعَنْزُ تُخَاطِبُ الْحِمَارَ): «عُذْرًا — يَا «أَبَا زِيَادٍ» — وَاصْفَحْ عَنْ زَلَّتِي، وَتَجَاوَزْ عَنْ خَطِيئَتِي، فَإِنِّي عَلَيْهَا جِدُّ نَادِمَةٍ، وَمَا كُنْتُ لِأَتَعَمَّدَ إِيقَاطَكَ مِنْ سُبَاتِكَ (تَنْبِيهِكَ مِنْ نَوْمِكَ)، وَلَكِنَّهَا حَشْرَةٌ خَبِيثَةٌ — لَسْتُ أَدْرِي مَا هِيَ — قَدْ لَدَغْتَنِي فِي رَقَبَتِي، فَلَمَّا هَمَمْتُ بِدَلْكِهَا، وَرَفَعْتُ رِجْلِي — فِي خَفَةٍ وَحَذَرٍ — لِأُخَفِّفَ أَثَرِ اللَّدِغِ — دَقَّ جَرَسِي — عَلَى غَيْرِ قَصْدٍ مِنِّي — فَأَيَقْظَكَ مِنْ نَوْمِكَ.»

الْحَنَسَاءُ (الْبَقَرَةُ تُخَاطِبُ الْعَنْزَ، تَرْفَعُ عَيْنَيْهَا الْكَبِيرَتَيْنِ وَقَدْ تَمَثَّلَ فِيهِمَا الْحُزْنُ وَالْأَلَمُ): «أَيُّ جَلَبَةٍ هَذِهِ؟ أَلَا تَكْفَيْنِ — يَا أُمَّ الْأَشْعَثِ — عَنْ هَذَا الْعَبَثِ؟ لَقَدْ أَرْعَجْتَنِي بِجَلَاغِكَ، وَأَيَقْظَتْنِي مِنْ سُبَاتِي (نَوْمِي) بِتِلْكَ الثَّرَثَةِ الْفَارِغَةِ وَالْكَلَامِ الْكَثِيرِ! هَذَا اِعْتِدَاءٌ سَمِيجٌ (قَبِيحٌ) لَا أَطِيقُهُ. أَلَا تَعْلَمِينَ أَنَّكَ أَضَعْتَ عَلَيَّ الْحُلْمَ اللَّذِيذَ، الَّذِي كُنْتُ أَنْعَمُ بِهِ فِي أَثْنَاءِ نَوْمِي؟ لَقَدْ تَمَثَّلَ لِي — فِي عَالَمِ الْأَحْلَامِ — يَوْمٌ سَعِيدٌ مِنْ أَيَّامِ الْحَرِيفِ، لَنْ أَنْسَى

طَبِيبُهُ مَا حَيِّتُ فَقَدْ غَابَ عَنَّا «ابْنُ وَازِعِ» (تَعْنِي الْكَلْبَ) — فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ — فَخَرَجْتُ
مَعَ بَنْتِي «الْجُودَرَةَ» تِلْكَ الْعَجَلَةَ الظَّرِيفَةَ، حَيْثُ قَضَيْنَا الْيَوْمَ كُلَّهُ نَاعِمَيْنِ بِأَكْلِ الْبِرْسِيمِ
الْهَنِيِّ السَّائِغِ، فَلَمَّا جَاءَ الْمَسَاءُ ظَلَلْنَا نَمْرُحُ (اشْتَدَّ فَرَحُنَا وَنَشَاطُنَا حَتَّى جَاوَزَا الْقَدْرَ)
فِي قِمَّةِ الْجَبَلِ (فِي أَعْلَاهُ)، بَيْنَ أَشْجَارِ الصَّنُوبَرِ وَالشُّوحِ الْكَبِيرَةِ. فَمَا كَانَ أَرْوَعُهُ مَنْظَرًا،
وَمَا كَانَ أَطْيَبَ تِلْكَ الْأَزَاهِيرِ الشَّدِيدَةِ الْمُعْطَرَّةِ ... ثُمَّ سَمِعْنَا صَوْتَ سَيِّدِنَا الْإِنْسَانِ يَنَادِينَا
وَهُوَ فِي سَفْحِ ذَلِكَ الْجَبَلِ الشَّامِخِ (الشَّدِيدِ الِارْتِفَاعِ).

أُمُّ فَرْوَةَ (النَّعْجَةُ تُخَاطَبُ الْعَنْزَ): «نَعَمْ — يَا أُمُّ الْأَشْعَثِ — لَقَدْ أَسَاتَ إِلَيْنَا بِمَا
فَعَلْتَ، وَأَيَّقَطْنَا جَرُسَكَ مِنْ نَوْمِنَا جَمِيعًا، وَلَنْ نَسْتَطِيعَ النَّوْمَ بَعْدَ الْآنِ. وَلَيْسَ لَنَا مِنْ حِيلَةٍ
نَتَحَوَّلُهَا لِنَقْضِي الْوَقْتَ الْبَاقِي إِلَّا أَنْ نَجْتَرَّ شَيْئًا مِمَّا اخْتَرْنَا ... مَا رَأَيْ الْخَنَسَاءِ فِي ذَلِكَ؟
لَقَدْ خَرْنَتْ مِقْدَارًا كَبِيرًا مِنَ الْحَشَائِشِ فِي جَوْفِي!»

أَبُو زِيَادٍ (الْحِمَارُ مُخَاطَبًا النَّعْجَةَ): «وَمَاذَا أَصْنَعُ الْآنَ؟ وَكَيْفَ أَضِيعُ الْوَقْتَ؟ أُنْسِيتِ
— يَا أُمُّ فَرْوَةَ — أَنْ لَيْسَ لِي أَرْبَعُ كُرُوشٍ مِثْلُ مَا لَكَ؟ فَمَنْ لِي بِأَنْ أَجْتَرَّ كَمَا تَجْتَرِينَ؟
أَلَا تَنْظُرِينَ إِلَى أَرْجُلِي؟ إِنَّكَ لَوْ أَنْعَمْتَ النَّظَرَ، لَرَأَيْتِ أَنَّي مِنْ غَيْرِ فَصِيلَتِكَ وَطَائِفَتِكَ، كَمَا
أَنْ صَدِيقِي «لَاحِقًا» لَا يَجْتَرُّ كَذَلِكَ، فَقَدْ وَقَانَا اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — تِلْكَ الْعَادَةَ السَّيِّئَةَ؛ أَغْنِي
أَنَّنَا لَمْ نَعْتَدْ أَنْ نَأْكُلَ مَرَّتَيْنِ — كَمَا تَفْعَلِينَ — لِأَنَّكَ تَأْكُلِينَ ثُمَّ تَخْزِنِينَ جُزْءًا مِمَّا أَكَلْتَهُ، فِي
كَرْشِكَ (مَعْدَتِكَ، وَالْكَرْشُ — لِذِي الْخُفِّ وَالظَّلْفِ وَكُلِّ مُجْتَرٍّ — بِمَنْزِلَةِ الْمَعْدَةِ لِلْإِنْسَانِ)
لِتَجْتَرِّيهِ وَقَتْمًا تَشَائِنَ».

أَبُو دَلْفٍ (الْخِنْزِيرُ): «وَمَاذَا أَنَا صَانِعٌ أَيْضًا؟ وَكَيْفَ أَضِيعُ الْوَقْتَ الْبَاقِي، أَيُّهَا
الْإِخْوَانُ؟ أُنْسِيتِ — يَا أُمُّ فَرْوَةَ (يَعْنِي النَّعْجَةَ) — أَنَّ جَدِّي وَأَبِي لَمْ يَجْتَرَّا قَطُّ، عَلَى الرَّغْمِ
مِنْ أَنَّ لَنَا أَرْجُلًا مَشْقُوقَةً كَأَرْجُلِكَ؟ وَلِهَذَا وَرِثْتُ عَنْهُمَا أَنْ أَزْهَدَ فِي تِلْكَ الْعَادَةِ الْمُرْدُودَةِ،
فَلَمْ أُمِرَّنْ نَفْسِي عَلَيْهَا قَطُّ».

(تَسْمَعُ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ صَجَّةً فِي وَسَطِ الإِصْطَبَلِ، لِأَنَّ الطَّيْلَ — ذَلِكَ الْحَمَلَ
الْمُجَعَّدَ الشَّعْرَ — وَأَبَا بُجَيْرٍ — ذَلِكَ الْجَدْيُ الشَّابَّ — جَرَّهُمَا الْمِرْاحَ إِلَى
النَّطَاحِ، فَأَرَادَا أَنْ يُجَرَّبَا قُرُونَهُمَا الصَّغِيرَةَ، فَاشْتَبَكَتِ وَالتَّصَقَّ رَأْسَاهُمَا، وَعَجَزَا
عَنْ تَخْلِصِ قُرُونِهِمَا الْمُشْتَبَكَةِ.)

الطَّلِيُّ (الْحَمْلُ، بِصَوْتِ أَبَحْ): «لَا.. لَا...!»
 أَبُو بُجَيْرٍ (الْجَدْيُ، مُنْدَفِعًا إِلَى الْأَمَامِ يُخَاطِبُ الْحَمْلَ): «لَا مَنَاصَ (لَا خَلَاصَ وَلَا مَفَرَّ) لَكَ مِنَ الْاعْتِرَافِ بِبَأْسِي وَقُوَّتِي، وَلَا بُدَّ أَنْ تُقَرَّ لِي بِالْغَلْبَةِ عَلَيَّ!»
 الطَّلِيُّ (الْحَمْلُ مُخَاطَبًا الْجَدْيَ): «أَمَّا أَنْكَ أَقْوَى مِنِّي، فَلَا، وَكَذَبْتَ فِي زَعْمِكَ! وَإِنَّمَا أَنْتَ مُدَّعٍ حَبِيثٌ.»

أَبُو بُجَيْرٍ (الْجَدْيُ، يَضْرِبُ عَيْنَ الطَّلِيِّ بِرَأْسِهِ فَيَعْلُو صُرَاخَ الطَّلِيِّ الْمُسْكِينِ): «طُقْ! طُقْ!»
 الطَّلِيُّ (الْحَمْلُ، يَجْرِي إِلَى أُمِّهِ بَاكِيًا): «آي! آي! أُمِّي! أُمِّي! لَقَدْ فَقَأَ الْخَبِيثُ عَيْنِي! آه! آه! لَقَدْ عَوَّرَهَا (جَعَلَهَا عَوْرَاءً).»

أُمُّ الْأَشْعَثِ (الْعَنْزُ، تُمِرُّ لِسَانَهَا — فِي رِفْقٍ وَهَوَادَةٍ — عَلَى فَمِ الطَّلِيِّ): «لَا عَلَيْكَ يَا وَلَدِي. لَا تَأَلَمْ. فَمَا بِكَ مِنْ سُوءٍ، أَنَا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ سَلَامَتِكَ، فَلَا يَحْزُنُكَ مَا حَدَثَ؛ فَإِنَّ «أَبَا بُجَيْرٍ» قَصَدَ إِلَى مُدَاعَبَتِكَ وَمِلَاطَفَتِكَ، وَلَمْ يَزِمْ إِلَى إِيْذَانِكَ. انْظُرْ إِلَيْهِ، أَلَا تَرَاهُ مُحْزُونًا وَاجِمًا (سَاكِتًا عَابِسَ الْوَجْهِ مُغْتَمًا) خَشْيَةً أَنْ تَكُونَ قَدْ أَصَبْتَ بِسُوءٍ؟»

أَبُو بُجَيْرٍ (الْجَدْيُ، يَقْتَرِبُ): «صَدَقْتَ — يَا أُمُّ الْأَشْعَثِ — وَبِالْحَقِّ نَطَقْتَ، فَمَا قَصَدْتُ إِلَى شَيْءٍ غَيْرِ الدُّعَابَةِ وَالْمَزَاحِ، فَهَلْ أَصَبْتُكَ بِأَذَى يَا رَفِيقِي الطَّلِيُّ؛ أَصْفَحْ عَنِّي يَا عَزِيزِي.»
 الطَّلِيُّ (الْحَمْلُ، لَا يَكْفُ عَنْ بُكَائِهِ): «هَي! هَي! هَي! مَا زَالَتْ عَيْنِي تَوْجَعُنِي.»

أَبُو بُجَيْرٍ (الْجَدْيُ): «إِنِّي مُحَقِّفُ أَلَمِكَ، فَادُنْ (اقْتَرِبْ) مِنِّي لِأَلْحَسَهَا (لَأَلْعَقَهَا) لَكَ ... أَلَا تَشْعُرُ بِرَاحَةِ الْآنِ؟ أَلَا تَزَالُ حَاقِدًا عَلَيَّ يَا رَفِيقِي؟»
 الطَّلِيُّ (الْحَمْلُ، يَسْكُنُ وَيَكْفُ عَنِ الْبُكَاءِ): «لَا عَلَيْكَ فَقَدْ نَسِيتُ مَا فَاتَ — يَا أَبَا بُجَيْرٍ — وَلَكِنْ لَا تَعُدْ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ مَرَّةً أُخْرَى.»

(تَقِفُ الدَّوَابُّ كُلُّهَا وَعَيْنُونَهَا مَفْتُوحَةٌ مُحْمِلَقَةٌ)

أَبُو زِيَادٍ (الْجَمَارُ): «مَاذَا نَصْنَعُ يَا أَصْحَابِي؟ لَقَدْ تَأَخَّرَ بِنَا الْوَقْتُ، أَلَا تَرَوْنَ ذَلِكَمُ الضُّوْءَ الَّذِي يُشْعُ (يَنْشُرُ شِعَاعَهُ) مِنَ النَّافِذَةِ، إِنَّهُ ضَوْءُ الْقَمَرِ السَّاطِعِ. وَأَنَا عَلَى ثِقَةٍ أَنَّ

لَنْ نَنَامَ طُولَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ فَلَنْ أَقْلِتَ مِنَ الصَّحْوِ مُبَكَّرًا فِي الصَّبَاحِ
التَّالِي، لِأَحْمِلَ اللَّبْنَ إِلَى الْمَدِينَةِ.»

الْخَنَسَاءُ (الْبَقْرَةُ مُحَاطِبَةُ الْحِمَارِ): «إِنَّكَ سَتَعْمَلُ كَمَا يَعْمَلُ سَيِّدُكَ — يَا «أَبَا زِيَادٍ»
— أَلَمْ تَقُلْ لِي ذَلِكَ الْيَوْمَ إِنَّهُ قَضَى وَقْتَهُ نَائِمًا طُولَ الطَّرِيقِ؟»

أَبُو زِيَادٍ (الْحِمَارُ مُحَاطِبًا الْبَقْرَةَ): «صَدَقْتَ — يَا سَيِّدَتِي الْخَنَسَاءُ — وَلَكِنْ لَا تَنْسَى
أَنْنِي مَسْئُولٌ عَنْ سَلَامَتِهِ، وَأَنْنِي جَدِيرٌ بِالتَّنَبُّهِ وَالْيَقَظَةِ فِي أَثْنَاءِ نَوْمِهِ.»

أُمُّ الْأَشْعَثِ (الْعَنْزُ، تَلْتَفَتُ إِلَى النَّعْجَةِ): «إِيه! مَاذَا بِكَ يَا أُمَّ فَرْوَةَ؟ مَا بَالُكَ تَرْجُفِينَ؟
أَمْرِيضَةٌ أَنْتِ؟»

أُمُّ فَرْوَةَ (النَّعْجَةُ مُحَاطِبَةُ الْعَنْزِ): «كَلَّا يَا صَاحِبَتِي، مَا أَنَا بِمَرِيضَةٍ، وَلَكِنَّ الْبَرْدَ
يَكَادُ يَهْلِكُنِي، فَاقْتَرِبِي مِنِّي، وَاتَّكِئِي عَلَيَّ لِأَسْتَدْفِيَ بِجَسَدِكَ، وَأَدْفَعْ بِكَ غَائِلَةَ الْبَرْدِ (شَدَّتْهُ
الْمُهْلِكَةُ).»

أُمُّ الْأَشْعَثِ (الْعَنْزُ): «بِكُلِّ سُرُورٍ يَا عَزِيزَتِي!»
الْخَنَسَاءُ (الْبَقْرَةُ تُحَاطِبُ النَّعْجَةَ): «عَجِيبٌ أَنْ تَشْعُرِي بِالْبَرْدِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، عَلَى
حِينَ لَمْ تَشْعُرِي بِذَلِكَ أَمْسٍ وَمَا سَبَقَهُ مِنَ الْأَيَّامِ؟ وَعَجِيبٌ مَا حَدَثَ لَكَ الْيَوْمَ يَا صَاحِبَتِي.
لَقَدْ أَنْكَرْتُكَ (جَهَلْتُكَ) إِذْ رَأَيْتُكَ تَدْخُلِينَ الْإِصْطَبَلَ — هَذَا الْمَسَاءَ — وَقَدْ تَبَدَّلَتْ هَيْئَتُكَ،
حَتَّى اخْتَلَطَ عَلَيَّ أَمْرُكَ! أَلَا تَرَوْنَ رَأْيِي أَيَّتُهَا الصَّاحِبَاتُ؟»

أَبُو زِيَادٍ (الْحِمَارُ يُحَاطِبُ الْبَقْرَةَ): «بَلَى — أَيَّتُهَا الْعَزِيزَةُ — إِنَّا عَلَى رَأْيِكَ مُجْمِعَاتٌ
فَقَدْ أَنْكَرْتُهَا كَذَلِكَ حِينَ رَأَيْتُهَا — وَسَأَلْتُ نَفْسِي مَدْهُوشًا: تَرَى مِنْ تَكُونُ هَذِهِ الرَّفِيقَةُ
الْجَدِيدَةُ؟ فَقَدْ بَدَأَ جِسْمُهَا صَغِيرًا مَهْزُولًا ... وَلَكِنَّ صَدِيقِي «لَاحِقًا» (يَعْنِي: الْجَوَادَ)،
أَخْبَرَنِي أَنَّ سَيِّدَهَا الْإِنْسَانَ قَدْ أَمَرَ بِقَصِّ صُوفِهَا الْجَمِيلِ فِي هَذَا النَّهَارِ.»

أُمُّ فَرْوَةَ (النَّعْجَةُ، بِصَوْتٍ مَحْزُونٍ): «صَدَقْتَنِي يَا رَفِيقَاتِي الْعَزِيزَاتِ. لَقَدْ أَصْبَحْتُ
عَارِيَةً، نَعَمْ جِدَّ عَارِيَةٍ مِنْ ثَوْبِي الْغُلِيطِ. فَقَدْ نَزَعَ أَحَدُ الرِّجَالِ عَنْ جَسَدِي تَلَكُنَّ الْخُصْلَ
الْجَمِيلَةَ، وَهِيَ جَمَاعَاتُ الشَّعْرِ الَّتِي كُنْتُ تُعْجَبُنِي بِهَا، وَلَمْ يَدَعْ لِي مِنْهَا إِلَّا خُصْلَةً صَغِيرَةً
مِنَ الشَّعْرِ فِي طَرَفِ الذَّيْلِ. وَقَدْ اسْتَوَلَى عَلَيَّ الْحُزْنُ الشَّدِيدُ، مُنْذُ حُرِمْتُ هَذَا الْكِسَاءِ الْبَدِيعِ.
فَلَقَدْ كَانَ لِي نَعَمُ النَّوْبِ الْمُدْفِئِ: يَقِينِي غَائِلَةُ الْبَرْدِ. فَلَمَّا حُرِمْتُهُ، سَرَتْ الرَّعْدَةُ (الرَّعْشَةُ
وَالْإِصْطِرَابُ) فِي جَسَدِي حَتَّى كِدْتُ أَعْجُزُ عَنِ الْحُضُورِ إِلَى هُنَا.»

الْجَمِيعُ (صَوْتًا وَاحِدًا): «لَكَ اللَّهُ يَا أُمَّ فَرْوَةَ ... مِسْكِينَةٌ أَنْتِ أَيْتَهَا الْعَزِيزَةُ». **أَبُو دُلْفَ** (الْخَنْزِيرُ): «لَيْسَ عَجَبًا أَنْ مَثَلُوا بِكَ — يَا أُمَّ فَرْوَةَ (صَنَعُوا بِكَ مِنَ السُّوءِ مَا يَلْفُ النَّظَرَ) — فَلَقَدْ طَالَ مَا حَدَّثْتُكَ بِعَدْرِ الْإِنْسَانِ وَأَنَا نِيَّتُهُ (كِبْرِيَاءُهُ وَشِدَّةُ حُبِّهِ لِنَفْسِهِ)، فَهُوَ يَأْبَى إِلَّا أَنْ يَسْتَوِيَّ عَلَى كُلِّ مَا نَمَلُكَ، وَيَسْتَأْثَرَ (يَنْفَرِدُ) بِطَيِّبَاتِنَا، وَلَا يَتْرَكَ شَيْئًا إِلَّا انْتَفَعَ بِهِ ... آه! لَهُ اللَّهُ مِنْ شَرِّهِ (شَدِيدِ الْحَرِصِ) طَمَاعٍ! أُوَكِّدُ لَكَ يَا أُمَّ الْأَشْعَثُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ — إِذَا فَقَدْنَا وَحَرَمَ خِدْمَتَنَا إِيَّاهُ — أَصْبَحَ مَحْزُونًا كَاسِفَ الْبَالِ (سَيِّئِ الْحَالِ). وَانْقَلَبَ زَهُوُّهُ وَخَيْلَاوُهُ (إِعْجَابُهُ بِنَفْسِهِ وَكِبْرِيَاوُهُ) ذَلَّةً وَانْكَسَارًا. وَلَوْ لَا صُوفُكَ الْجَمِيلُ، لَعَاشَ الْإِنْسَانُ غَارِيًّا كَمَا تَعْرِى الضَّفِيعُ وَ ...»

لَاحِقُ (الْجَوَادُ، يُقَاطِعُهُ): «صِه — يَا أَبَا دُلْفَ — وَحَذَارُ أَنْ تَذُمَّ الْإِنْسَانَ أَمَامِي، فَهُوَ خَيْرٌ سَمَحٌ كَرِيمٌ وَقَدْ غَمَرْنَا بِعَطْفِهِ وَحُبِّهِ. أَفَاهُمْ أَنْتُ؟ إِنَّهُ سَيِّدُنَا وَأَنَا أَمَحْضُهُ الْحُبِّ (أَخْلَصُ لَهُ الْوُدَّ)، وَلَا أَذُنُ لَكَ فِي اغْتِيَابِهِ وَتَنْقِصِهِ (التَّحَدُّثِ فِي غَيْبَتِهِ بِمَا يَعْيبُهُ)، فَحَذَارُ أَنْ تَمَسَّ سُمْعَتَهُ بِسُوءٍ!»

أَبُو دُلْفَ (الْخَنْزِيرُ): «إِذَا صَحَّ مَا تَقُولُ: وَاعْتَرَفْنَا لِلْإِنْسَانِ بِسَيَادَتِهِ عَلَيْنَا، فَقَدْ سَجَلْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا أَنْنَا أَدْلَاءُ جَبَنَاءُ. فَمَنْ لَنَا بِالِاتِّحَادِ وَالتَّضَافُرِ؟ آه! لَوْ تَحَقَّقَ هَذَا الْحُلْمُ الْجَمِيلُ، وَأَصْبَحْنَا جَمِيعًا يَدًا وَاحِدَةً! إِنَّ لَقَهْرَنَاهُ، وَغَلْبَنَاهُ عَلَى أَمْرِهِ. فَإِنَّ لِي مَخَالِبَ قَوِيَّةً فَاتِكَّةً، تُشَبِّهُ الْكَلَالِيْبَ (وَهِيَ: حَدَائِدُ مُلْتَوِيَةِ الرَّأْسِ)، وَلَأُمُّ الْأَشْعَثُ قَرْنَيْنِ كَبِيرَيْنِ لَا قَبْلَ (لَا قُدْرَةَ) لَهُ بِمُقَاوَمَتِهِمَا. فَلَوْ صَحَّتْ عَزِيمَتُنَا وَتَرَكَنَا الْجُبْنَ وَالْخَوَرَ (الضَّعْفَ) جَانِبًا، لَانْتَصَرْنَا عَلَيْهِ، وَأَصْبَحْنَا سَادَةً فِي هَذَا الْمَكَانِ. وَأَيُّ حَيَاةِ السَّادَةِ مِنْ حَيَاةِ الْعَبِيدِ الْأَرْقَاءِ؟ وَمَنْ لَنَا بِالتَّضَافُرِ، لِنَقْهَرُ (نُغْلِبَ) هَذَا السَّيِّدَ، وَنُصْبِحَ أُولَى الْأَمْرِ فِي هَذَا الْمَكَانِ: نَسْتَنْقِظُ مَتَى شِئْنَا، وَنُقَابِلَ مَنْ شِئْنَا مِنْ الْأَصْدِقَاءِ وَالْخُلَصَاءِ، وَنَفْرِضَ عَلَى الْإِنْسَانِ طَاعَتَنَا وَسَيَادَتَنَا!»

لَاحِقُ (الْجَوَادُ، غَاضِبًا يَضْرِبُ الْأَرْضَ بِسُنْبُكِهِ وَهُوَ الْحَدِيدَةُ فِي الْحَافِرِ): «يَا لَكَ مِنْ جَاحِدٍ، مُنْكَرٍ لِلْجَمِيلِ، يَا أَبَا دُلْفَ!»

أَبُو دُلْفَ (الْخَنْزِيرُ مُحَاطِبًا الْجَوَادَ): «مَا أَعْجَبَ أَمْرَكَ يَا لَاحِقُ! أَنْسَيْتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْلُبُنَا نَفَائِسَنَا وَيَغْتَصِبُ مَا هُوَ حَقُّ لَنَا. وَلَا يُبْقِي عَلَى شَيْءٍ نَمَلِكُهُ إِلَّا اسْتَأْثَرَ (اِخْتَصَّ نَفْسَهُ) بِهِ؟ أَلَا تَعْلَمُونَ — أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ — أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَفْعَلُ هَذَا إِلَّا بَغْيًا (ظُلْمًا) مِنْهُ



وَعُدُّوَانَا؟ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ مِثَالُ الشَّرِّهِ وَالْأَنَانِيَّةِ، وَلَيْسَ فِي دَوَابِّ الْأَرْضِ كُلِّهَا مَا يُدَانِيهِ فِي شَرِّهِهِ وَأَنَانِيَّتِهِ، فَهُوَ دَائِبٌ عَلَى أَكْلِ الْفَطَائِرِ الْمُسْكَّرَةِ، وَالْحَلْوَى، وَمَا إِلَى ذَلِكُمْ. فَهَلْ خَطَرَ بِنَالِهِ أَنْ يُشْرِكَنِي مَعَهُ فِي تِلْكَ الْفَطَائِرِ اللَّذِيذَةِ الطَّعْمِ؟ كَلَّا يَا أَعْرَاضِي، إِنَّمَا يَتْرُكُ لِي مِنْ فَضْلَاتِهِ مَا يَتَخَيَّرُ لِي؟ وَاسْمَحُوا لِي أَنْ أَسْأَلَكُمُ: لِمَاذَا لَا يَأْكُلُ الْحَشَائِشُ كَمَا نَأْكُلُهَا عَلَى شَوَاطِيءِ الْغُدْرَانِ وَالْمَنَاقِعِ (وَهِيَ جَمْعُ مُسْتَنْقَعٍ: مَكَانٌ يَلْتَقِي فِيهِ الْمَاءُ وَيَكْثُرُ)؟ كَلَّا، إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكُمْ، بَلْ يَسْتَأْذِنُ (يَخُصُّ نَفْسَهُ) بِلَذَائِدِ الْأَطْعِمَةِ، وَطَبَيِّبَاتِ الْحَلْوَى! آه لَهُ، وَوَاهٍ مِنْهُ، أَيُّهَا الْخُلَصَاءُ الْأَعْرَاءُ! أَتَحْسَبُونَهُ يُؤْوِينَا فِي دَارِهِ، إِشْفَاقًا عَلَيْنَا وَبِرًّا بِنَا؟ شَدَّ مَا أَحْسَنْتُمْ بِهِ الظَّنَّ الْكَذُوبَ، وَشَدَّ مَا حَدَعْتَكُمْ أَوْهَامُكُمْ، وَكَذَبْتَكُمْ أَخْلَامُكُمْ! إِنِّي جِدُّ خَبِيرٍ بِمَصِيرِي (عَارِفٌ غَايَةَ أَمْرِي حَقَّ الْمَعْرِفَةِ). وَلَسْتُ أَجْهَلُ كَيْفَ تَكُونُ خَاتِمَةُ حَيَاتِي التَّاعِسَةِ عَلَى يَدِ هَذَا الْغَايِرِ الْمُنْكَرِ الْجَمِيلِ. فَإِنَّهُ مَتَى أَقْبَلَ فَضْلَ الشَّتَاءِ، وَبَرَدَ الْجَوْ؛ وَرَآنِي سَمِينًا مُمْتَلِئًا الْجِسْمِ، مُتَكَنِّزًا اللَّحْمَ، (لَحْمِي مُتَجَمِّعٌ مُتَصَلِّبٌ) لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي دَبْحِي ...»

لَاحِقُ (الْجَوَادُ): «طَالَمَا حَدَّثْتَنِي أُمُّكَ — وَهِيَ حَازِمَةٌ ذَكِيَّةٌ رَشِيدَةٌ — أَنَّنَا لَمْ نُخْلَقْ إِلَّا لِنَخْدُمَ سَيِّدَنَا الْإِنْسَانَ. فَمِنَّا مَنْ يَخْدُمُهُ فِي حَيَاتِهِ وَمِنَّا مَنْ يَخْدُمُهُ بَعْدَ مَمَاتِهِ وَمِنَّا مَنْ يَخْدُمُهُ فِي حَيَاتِهِ وَمَوْتِهِ عَلَى السَّوَاءِ وَحَسْبُنَا هَذَا شَرَفًا وَمَجْدًا فَلَيْسَ أَجْمَلُ مِنْ أَنْ نُسَلَكَ فِي عِدَادِ النَّافِعِينَ! وَمَا أَغْدَبَ الْمَوْتَ وَأَهْنَأَهُ إِذَا أَغْقَبَهُ النَّفْعُ وَالْخَيْرُ لِلنَّاسِ!»

أَبُو دُلْفَ (الْخَنْزِيرُ): «هُومُ! هُومُ! أَتَقُولُ: «مَا أَحَلَّى الْمَوْتَ»؟ يَا لَكَ مِنْ أُبْلَةٍ غَبِيٍّ! فَمَتَى يُحَقِّقُ اللَّهُ رَجَائِي فَأُلْفِيكَ (أَلْفَاكَ أَمَامِي) مَذْبُوحًا؟ عَلَى أَنِّي أَدْعُ لَكَ رَأْيِكَ، وَأُكَاشِفُكَ: إِنَّنِي لَا أَرَى مَا تَرَاهُ!»

لَاحِقُ (الْجَوَادُ، يَخَاطِبُ الْخَنْزِيرَ): «شَدَّ مَا أَضْلَكَ الْغَرَضُ، وَأَعْمَاكَ الْهُوَى يَا أَبَا دُلْفَ — فَإِنَّا أَقْضِي حَيَاتِي كُلَّهَا جَادًّا عَامِلًا، دَائِبًا عَلَى احْتِمَالِ الْمَشَقَّةِ وَالْعَنَاءِ بِصِرِّ عَجِيبٍ، عَلَى حِينِ تَقْضِي حَيَاتِكَ كُلَّهَا مُتَبَطِّلًا (مُتَعَطِّلًا) كَسْلَانًا: تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ وَتَنَامُ، ثُمَّ لَا تَعْمَلُ شَيْئًا بَعْدَ ذَلِكَ. أَفَلَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ تُذَبِّحَ، مَا دُمْتَ لَمْ تُسِدِّ إِلَى أَحَدٍ (لَمْ تُقَدِّمْ لَهُ) فَائِدَةً أَوْ نَفْعًا طُولَ حَيَاتِكَ؟ وَأَيُّ فَائِدَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ لِكَائِنٍ كَانَ إِذَا لَمْ يَنْفَعْ غَيْرُهُ؟»

أَبُو دُلْفَ (الْخَنْزِيرُ، يَخَاطِبُ الْجَوَادَ): «إِنِّي لَأُوَثِّرُ (أُخْتَارُ) أَنْ أَعْمَلَ مِثْلَ عَمَلِكَ — يَا سَيِّدِي (لَاحِقُ) — حَتَّى لَا تُخْتَمَ حَيَاتِي بِالذَّبْحِ، وَلِكِنِّي — كَمَا تَرَى — سَمِينُ الْجِسْمِ، كَثِيرُ الشَّحْمِ، بَطِيءُ الْحَرَكَةِ، كَثِيرُ النَّوْمِ، وَلِذَلِكَ لَا أُنْشِطُ إِلَى الْعَمَلِ كَمَا تَنْشِطُ أَنْتَ. عَلَى أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ خَطِيئِي، وَلَيْسَ لِي حِيلَةٌ فِي دَفْعِهِ، وَقَدْ كَانَ أَبِي يَقُولُ: إِنَّنَا لَا نَنْفَعُ فِي أَثْنَاءِ حَيَاتِنَا، حَتَّى إِذَا هَلَكْنَا أَصْبَحْنَا نَافِعِينَ!»

أَبُو زِيَادٍ (الْجِمَارُ، يَضْحَكُ وَهُوَ يَرْفَعُ شَفْتَهُ الضَّخْمَةَ): «إِنَّكَ لَا تَنْفَعُ أَحَدًا، فِي حَيَاتِكَ وَمَمَاتِكَ أَبَدًا، فَلَا تَفْخَرْ بِشَيْءٍ، فَإِنَّكَ أَقْدَرُ دَوَابِّ الْأَرْضِ وَأَشَدُّهَا وَقَاحَةً، وَقَدْ كُنْتَ — وَلَا تَزَالُ — مَضْرَبَ الْمَثَلِ فِي الشَّرِّ، وَالسَّمَاجَةِ، وَالرُّجْسِ (الْقَدَرِ)!»

أَبُو دُلْفَ (الْخَنْزِيرُ): «لَقَدْ دَخَلْتُ الْمَطْبَخَ — ذَاتَ يَوْمٍ — فِي غَيْبَةِ «ابْنِ وَارِزٍ» — (الْكَلْبِ) — فَرَأَيْتُ مَا هَالَنِي (فَرَّعَنِي) ...»

أُمُّ الْأَشْعَثِ (الْعَنْزُ): «أَدَخَلْتُ الْمَطْبَخَ؟ ... أَوْه! وَلِمَاذَا دَخَلْتُ الْمَطْبَخَ؟ آه! لَوْ رَأَى سَيِّدُكَ هُنَاكَ ... إِذَنْ لَأَمَرَ بِذَبْحِكَ، جَزَاءَ هُجُومِكَ وَتَعَدِّيكَ!»

أَبُو دُلْفَ (الْخَنْزِيرُ، جَادًّا فِي لَهْجَتِهِ): «لَا يَسْخَرُ أَحَدٌ مِمَّا أَقُولُ. لَقَدْ دَخَلْتُ الْمَطْبَخَ، وَأَجَلْتُ (أَدْرْتُ) بَصْرِي فِيهِ، فَرَأَيْتُ — وَيَا لَهْوٍ مَا رَأَيْتُ — أَكْيَاسًا صَغِيرَةً مَمْلُوءَةً لَحْمًا، وَإِلَى جَانِبِهَا أَرْجُلُ صَدِيقَتِنَا الْعَرِيزَةِ «الْجَوَازِ»: النُّعْجَةُ الظَّرِيفَةُ الَّتِي فِي وَسْطِهَا بَيَاضٌ. وَقَدْ كُنَّا نَأْسُ بِهَا مُنْذُ أَيَّامٍ. فَفَزَعْتُ وَهَرَبْتُ مُسْرِعًا إِلَى فِنَاءِ الدَّارِ، (وَهِيَ السَّاحَةُ الَّتِي أَمَامَهَا).»

الْحَنَسَاءُ (الْبَقَرَةُ): «مَا أَفْطَحَ مَا تَقْصُهُ عَلَيْنَا يَا أَبَا دُلْفَا! أَبُو دُلْفَ (الْخَنْزِيرُ): «إِنِّي أَحَدْتُكَ بِمَا رَأَيْتُهُ عَيْنَايَ، وَأَنَا وَاثِقٌ مِمَّا رَأَيْتُ، كَمَا أَتَقُ أَنْ لِي أَدْنَيْنِ. فَلْتَعْلَمَنَّ — يَا رَفِيقَاتِي الْعَرِيزَاتِ — أَنَّ مَصَارِعَنَا وَشَيْكَةً (أَنَّ أَيَّامَ ذُبْحِنَا قَرِيبَةٌ) لَا مَفَرَّ مِنْهَا، فَلَا يُدْهَشَنَّكَ ذَلِكَ يَا «جُودَرَةُ»!»

الْجُودَرَةُ (الْعِجْلَةُ): «مَا أَحْسَبُهُمْ يَسْتَطِيعُونَ ذُبْحِي، فَإِنِّي عَلَى ثِقَةٍ مِنْ قُدْرَةِ أُمِّي عَلَى حِمَايَتِي، لِأَنَّهَا سَتَنْطَحُّهُمْ بِقَرْنَيْهَا الْكَبِيرَيْنِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا أُمَاهُ؟ عَلَى أَنَّنِي أُعَاهِدُكَ أَنْنِي لَنْ أُرْكَنَ إِلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ، وَلَنْ أَكُلَ شَيْئًا مِنَ الْبَلَحِ الَّذِي تُهْدِيهِ إِلَيَّ «سُعَادُ» — بِنْتُ سَيِّدِنَا الْإِنْسَانِ — مَا دَامَ النَّاسُ عَلَى مِثْلِ مَا وَصَفْتَ مِنَ اللُّؤْمِ وَالْغَدْرِ يَا «أَبَا دُلْفَا»!»

لَا حِقُّ (الْجَوَادُ، بَوَقَارٍ): «أَصْغُوا إِلَيَّ — يَا رِفَاقِي — فَإِنِّي أَكْبَرُكُمْ سِنًّا، وَأَعْرِفُكُمْ بِالنَّاسِ، وَأَخْبَرُكُمْ بِالْحَيَاةِ؛ لِأَنَّنِي قَدْ عَشْتُ أَكْثَرَ مِمَّا عَشْتُمْ، وَبَلَوْتُ (جَرَبْتُ وَاخْتَبَرْتُ) مِنْهُمْ الطَّيِّبَ وَالْخَبِيثَ. وَيَجِبُ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ النَّاسَ يَخْتَلِفُونَ كَرَمًا وَلَوْْمًا، كَمَا تَخْتَلِفُ الدَّوَابُّ سَوَاءً بِسَوَاءٍ. فَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَدْفَعُهُمُ الْقَسْوَةُ إِلَى إِجْهَادِنَا (إِتْعَابِنَا) — بِلَا رَحْمَةٍ — فَلَا يَتَأَثَّمُونَ (لَا يَكْفُونُ عَنِ الْإِثْمِ)، وَلَا يَخْشَوْنَ مِنْ إِعْنَاتِنَا وَإِرْهَاقِنَا وَضَرْبِنَا، وَلَا يَبَالُونَ مَا كَابَدْنَاهُ مِنَ التَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ وَالضَّنَى. وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَلَطَّفُونَ بِنَا، وَيُدَاعِبُونَنَا مُتَوَدِّدِينَ. وَسَيِّدُنَا مِنْ هَذَا الْفَرِيقِ الطَّاهِرِ الْقَلْبِ، الْكَرِيمِ النَّفْسِ. فَهُوَ دَائِبٌ عَلَى مَدَاعِبَتِنَا وَالتَّوَدُّدِ إِلَيْنَا، وَلَا يَكَادُ يَخْلُو جَنِبَهُ مِنْ قِطْعَةٍ مِنَ الْخُبْزِ أَوْ السُّكَّرِ أَوْ الْمِلْحِ يَقْدِمُهَا لَنَا مُتَلَطِّفًا، لِيُرْفِقَهُ عَنَّا (يُخَفِّفُ مِنْ آلَمِنَا). فَلَا غَرَوْ (لَا عَجَبَ) إِذَا أَحْبَبْنَاهُ حُبًّا جَمًّا (كَثِيرًا)، وَبَذَلْنَا حَيَاتِنَا فِدَاءً لَهُ. أَلَيْسَ هَذَا صَحِيحًا أَيُّهَا الْإِخْوَانُ؟»



(الْجَمِيعُ يُقَرُّونَ كَلَامَهُ وَيَصِيحُونَ مُعْلِنِينَ مُوَافَقَتَهُمْ، فَتَخَوَّرُ الْبَقَرَةُ، وَيَنْهَقُ
الْجِمَارُ، وَتَنْتَعُو النَّعْجَةُ وَالْعِزْزُ وَالْحَمَلُ وَالْجَدْيُ، أَمَّا الْخِنْزِيرُ فَلَا يَقْرُ هَذَا الرَّأْيَ
فَيَقْبَعُ فِي رُكْنٍ مِنَ الْإِسْطَبَلِ).

أَبُو دُلْفَ (الْخِنْزِيرُ، بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الصَّمْتِ): «صَدَقْتَ يَا لَاحِقُ، وَلَكِنْ لَا تَقُلْ: إِنَّكَ
جَدِيرٌ أَنْ تُفْنِيَ عُمْرَكَ فِي الْعَمَلِ لِأَجْلِهِ.»

لَاحِقُ (الْجَوَادُ، هَازًا عُرْفَهُ الطَّوِيلَ، وَهُوَ شَعَرُ رَقَبَتِهِ): «مَا مَعْنَى هَذَا؟ وَأَيُّ غَضَاضَةٍ
ذَلَّةٍ فِي أَنْ يَظَلَّ الْفَرْدُ مَنَّا عَامِلًا كَادِحًا (جَاهِدًا نَفْسَهُ فِي الْعَمَلِ) طَوْلَ حَيَاتِهِ؟ أَلَمْ نُخْلُقْ
لِنَعْمَلْ؟ وَمَا مَعْنَى وَجُودِنَا فِي الْحَيَاةِ إِذَا لَمْ نُوَدِّ قَسْطُنَا (نَصِيبِنَا) مِنَ الْوَاجِبِ؟ أَلَا فَلْتَعْلَمْ
— يَا أَبَا دُلْفَ — أَنَّ شَيْئًا وَاحِدًا يُوفِّرُ لَنَا السَّعَادَةَ (يُكَثِّرُهَا لَنَا) فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَهُوَ:
الْعَمَلُ. أَلَا تَرَى النَّمْلَ فِي بُيُوتِهِ دَائِبًا عَلَى السَّعْيِ فِي جِدٍّ وَنَشَاطٍ؟ أَلَا تَرَى النَّحْلَ يَمْتَصُّ

الْأَزْهَارَ، وَيَنْتَقِلُ مِنْ رَوْضَةٍ إِلَى أُخْرَى، لِيُعِيدَهَا شُهِدًا (عَسَلًا) سَائِعًا لِلْكَلْبَيْنِ؟ أَلَا تَرَى
الْعَصَافِيرَ دَائِبَةً (مُسْتَمِرَّةً) عَلَى بِنَاءِ أُوكَارِهَا؟ أَلَا تَرَى الْأَشْجَارَ تَنْمُو لِنُظْلَالِ النَّاسِ وَتَقِيهِمْ
عَائِلَةَ الْحَرَارَةِ؟ أَلَا تَرَى الشَّمْسَ دَائِبَةً عَلَى الطُّلُوعِ — كُلَّ يَوْمٍ — لِتُدْفِنَنَا وَتُنِيرَ لَنَا سَبِيلَ
الْحَيَاةِ؟ أَلَا تَرَى النَّاسَ يَكْذِبُونَ وَلَا يَفْتُرُونَ (لَا يَهْدَأُونَ) عَنِ الْعَمَلِ؟
الْحَنَسَاءُ (الْبَقْرَةُ): «مَا هَذَا الْكَلَامُ يَا لَاحِقُ؟ أَرَأَيْتَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ يَجُرُّ الْمَحْرَثَ
كَمَا تَجُرُّهُ أَنْتَ؟»

أَبُو زِيَادٍ (الْجَمَارُ): «أَوْ كَمَا أَجُرُّهُ أَنَا يَا حَنَسَاءُ؟ أَنْسَيْتِ أَنَّي أَجُرُّ الْمَحَارِيثَ أَيْضًا؟»
الْحَنَسَاءُ (الْبَقْرَةُ، وَلَمْ تَسْمَعْ كَلَامَ أَبِي زِيَادٍ): «ثُمَّ إِنَّهُمْ يَضْرِبُونَكَ — يَا لَاحِقُ —
وَيُلْهَبُونَ جِسْمَكَ بِسَيَاطِهِمْ (جَمْعُ سَوْطٍ، وَهُوَ مَا يَضْرِبُ بِهِ مِنْ جِلْدٍ أَوْ غَيْرِهِ)، فَمَا أَقْسَاهُمْ
وَأَغْلَظَ أَكْبَادَهُمْ!»

لَاحِقُ (الْجَوَادُ، مِنْ فَوْرِهِ): «كَلَّا يَا حَنَسَاءُ، لَقَدْ كَذَبْتَكَ ظَنُونُكَ، فَإِنَّ سَيِّدِي لَا يُلْهَبُ
جَسَدِي بِسَوْطِهِ — كَمَا تَزْعُمِينَ — بَلْ يَكْتَفِي بِأَنْ يَمَسَّ جِسْمِي بِطَرْفِ سَوْطِهِ — فِي
خَفَةٍ وَرِشَاقَةٍ — لِيَحْتَنِنِي عَلَى الْعَدُوِّ (لِيَدْعُونِي إِلَى سُرْعَةِ الْجَرِيِّ) فَلَا يَكَادُ يَمَسُّنِي وَشَيْبُ
سَوْطِهِ (طَرْفُهُ) حَتَّى أَنْطَلِقَ فِي عَدْوِي كَالرَّيْحِ، وَلَسْتُ أَشْكُو شَيْئًا مِنْ هَذَا السَّيِّدِ الْكَرِيمِ،
بَلْ أَرَانِي جَدَّ سَعِيدٍ فِي دَارِهِ!»

أَبُو دُلْفٍ (الْخَنْزِيرُ): «لَا شَكَّ فِي أَنَّهُمْ يُعْنَوْنَ بِكَ لِجَمَالِكَ وَرِشَاقَتِكَ وَحُسْنِ قَوَامِكَ،
فَهُمْ يَغْسِلُونَ جَسَدَكَ وَيُنَظِّفُونَهُ، وَيُرْجِلُونَ شَعْرَكَ (يُمَشِّطُونَهُ) أَمَّا «أَبُو دُلْفٍ» الْمُسْكِينُ،
فَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَحَدٌ يُعْنَى بِأَمْرِهِ، أَوْ يَأْبَهُ (يَهْتَمُّ) لِشَأْنِهِ. وَلَيْتَهُمْ يَغْسِلُونَ جَسَدِي — بَيْنَ
حَيْنٍ وَآخَرَ — كَمَا يَفْعَلُونَ مَعَكَ. إِذَنْ أَصْبَحَ فِي مِثْلِ جَمَالِكَ وَرِشَاقَتِكَ.»

لَاحِقُ (الْجَوَادُ): «يَا ابْنَ عَمِّي يَا أَبَا زِيَادٍ! أَوْتَضَّنُنِي لَا أَنْفَعِ النَّاسَ — بَعْدَ مَوْتِي —
كَمَا أَنْفَعُهُمْ فِي حَيَاتِي؟ لَقَدْ أُعْجِبْتُمْ بِشَعْرِي الْمَتَدِّلِيِّ عَلَى رَقَبَتِي، كَمَا أُعْجِبْتُمْ بِذَيْلِي الطَّوِيلِ
الَّذِي أَهْشُ بِهِ الذُّبَابَ، فَهَلْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَيِّدِي يَنْحَذُ — مِنْ هَذَا الشَّعْرِ — زِينَةً لِسَرِيرِهِ.»
أَبُو دُلْفٍ (الْخَنْزِيرُ): «أُوهِ! إِنِّي أَقْرُ لَكَ مُعْتَرِفًا أَنَّ الْإِنْسَانَ ذَكِيٌّ بَارِعٌ، وَأَنَّهُ خَيْرٌ
بِكُلِّ مَا يَعُودُ عَلَيْهِ بِالنَّفْعِ الْجَزِيلِ. فَهُوَ يَعْرِفُ كَيْفَ يُعْنَى بِنَفْسِهِ، وَيَنْتَفِعُ بِكُلِّ مَا يَكْتَنِفُهُ
(يُحِيطُ بِهِ) مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ فَلَا غَرَوْ إِذَا عُمِرَ (طَالَتْ حَيَاتُهُ) وَعَاشَ أَكْثَرَ مِمَّا نَعِيشُ!»

الجُودَرَةُ (العَجَلَةُ): «لَا تَنْسُوا أَنَّنِي جِدُّ نَافِعَةٍ لِلْإِنْسَانِ. أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا أُمِّي؟ لَقَدْ أَخْبَرْتَنِي أَنَّ ضَرْعِي (تُدِّي) سَيَدُرُّ اللَّبَنَ بَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ. وَلَسْتُ أَشْكُ فِي أَنَّ «سَعَادَ» الصَّغِيرَةَ سَتَفْرَحُ بِهَذَا اللَّبَنِ الطَّيِّبِ الْمَرِي، وَتَسْتَسِيعُ مَا يَحْوِيهِ مِنْ زُبْدٍ دَسَمَ هَنِي». **الْحَنَسَاءُ (البَقَرَةُ تَخَاطَبُ الْعَجَلَةَ):** «صَدَقْتَ يَا بُنَيْتِي، فَإِنَّكَ عَلَى وَشْكِ أَنْ تُصْبِحِي فِي عِدَادِ الْبَقَرِ وَثَمَّةَ يَنْتَفِعُ النَّاسُ بِلَبَنِكَ السَّائِعِ فِي تَغْذِيَةِ أَطْفَالِهِمْ، وَيَفْتَنُّونَ فِي صُنْعِ آلَوَانِ الْجُبْنِ وَالزُّبْدِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ لَذَائِدِ الْأَطْعِمَةِ.»

أُمُّ فَرْوَةَ (النَّعْجَةُ تَخَاطَبُ الْبَقَرَةَ): «أَلَا تَعْلَمِينَ — يَا صَدِيقَتِي الْحَنَسَاءُ — أَنَّ لَبَنِي يُعَافِي الْمَرْضَى، وَيَقْوِي أَجْسَادَهُمْ؟ إِنَّنِي صَادِقَةٌ إِذَا قُلْتُ: إِنَّنِي أَكْثَرُ الْحَيَوَانِ نَفْعًا لِلْإِنْسَانِ. وَلَسْتُ أَبَاهِي (أَفَاخِرُ) بِنَفْسِي، وَلَا أَغَالِي بِقِيمَتِي إِذَا قَرَّرْتُ ذَلِكَ فِي ثِقَةٍ وَيَقِينٍ، وَمَا أَحْسَبُ أَنَّ أَيَّ دَابَّةٍ مِنْ دَوَابِّ الْأَرْضِ تَنْفَعُ النَّاسَ بِمِقْدَارِ مَا أَنْفَعُهُمْ فَلَا عَجَبٌ إِذَا أَحْبَبُونَا، وَفَتِنُوا بِنَا — مَعَشَرَ الْخُرَفَانِ — وَجَعَلُونَا مَضْرَبَ الْأَمْثَالِ فِي مَدْحِ خِلَالِ الْإِنْسَانِ. فَهُمْ يَقُولُونَ فِي أَمْثَالِهِمْ، وَمَا أَصْدَقَهُمْ فِيمَا يَقُولُونَ: «إِنَّ فَلَانًا وَدِيعٌ كَالْحَمَلِ!»

أُمُّ الْأَشْعَثِ (الْعَنْزُ تَخَاطَبُ النَّعْجَةَ): «لَعَلَّكَ — يَا أُمُّ فَرْوَةَ — تُمَرِّدِينَ نَفْسَكَ عَلَى إِلْقَاءِ الدُّرُوسِ عَلَيْنَا.»

أُمُّ فَرْوَةَ (النَّعْجَةُ، فِي سُكُونٍ): «إِنَّهَا الْغَيْرَةُ وَالْحَسَدُ، يَدْفَعَانِكَ إِلَى السُّخْرِيَةِ مِمَّا أَقُولُ. لَقَدْ عَرِفَ عَنْكَ حُبُّ الْمُشَاكَسَةِ وَالْمُعَاكَسَةِ، وَاشْتَهَرَ أَمْرُكَ — بَيْنَ النَّاسِ — بِالشَّرَاسَةِ وَسُوءِ الْخُلُقِ، لِأَنَّكَ دَائِبَةٌ عَلَى الشُّجَارِ وَالزُّزَاعِ. وَالنَّاسُ يَمْقُتُونَ هَذَا الْخُلُقَ الشَّرِسَ. وَإِنِّي أَكْاشِفُكَ الْقَوْلَ: إِنَّكَ قَلِيلَةُ الْغِنَاءِ، حَقِيرَةُ الْفَائِدَةِ.»

أُمُّ الْأَشْعَثِ (الْعَنْزُ تَخَاطَبُ النَّعْجَةَ، مُغْضَبَةً حَانَقَةً): «كَيْفَ تُنْكِرِينَ فَائِدَتِي؟ أَعَنْ جَهْلُ تَفْعَلِينَ ذَلِكَ، أَمْ عَنْ تَجَاهُلٍ؟ إِنَّ النَّاسَ يُطْلِقُونَ عَلَيَّ دَائِمًا ذَلِكَ اللَّقَبَ الْحَبِيبَ إِلَى نَفْسِي، فَيَقُولُونَ: «بَقَرَةُ الْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ!» إِنَّكَ خَبِيثَةٌ — يَا أُمُّ فَرْوَةَ — لِأَنَّكَ تَجْرِيْنِ عَلَى إِنْكَارِ قَوَائِدِي الْعِمِيْمَةِ، وَمَزَايَايَ الْعَظِيْمَةِ، وَتَجْحَدِينَ فَضْلِي عَلَى النَّاسِ. وَلَسْتُ أَدْرِي: أَيُّ مِيزَةٍ انْفَرَدَتْ بِهَا — مِنْ بَيْنِ الدَّوَابِّ — فَمَلَأْتَ نَفْسَكَ صَلَفًا (كِبْرًا) وَغُرُورًا وَادِّعَاءً، حَتَّى زَعَمْتَ أَنَّ لَبَنَكَ الَّذِي...»

أُمُ فَرْوَةَ (النَّعْجَةِ، تَنْغُو بِصَوْتِهَا اللَّطِيفِ): «لَا تَغْضَبِي يَا أُمُّ الْأَشْعَثِ، وَلَا تَتَمَانَي فِي صَحْبِكَ (صَحْبَتِكَ)، فَإِنَّ الْأَمْرَ أَيْسَرُ مِمَّا تَنْظُنِّ. وَفِي قُدْرَتِنَا أَنْ نُنَاقِشَ — فِي غَيْرِ غَضَبٍ — وَأَنْ نُنْذِرَ بِحُجَّتِنَا مِنْ غَيْرِ مُنَافَرَةٍ أَوْ مَلَاخَةٍ ... أَلَا تُقَرِّينَ — قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ — أَنَّي عَظِيمُهُ الْفَائِدَةُ لِلنَّاسِ؟ فَإِذَا أَنْكَرْتَ هَذَا فَخَبِّرِينِي — بِرَبِّكَ يَا عَزِيزَتِي — كَيْفَ يَعْيشُ الْإِنْسَانُ إِذَا فَقَدَ نِعَاجَهُ وَكِبَاشَهُ؟ وَكَيْفَ يَقْضِي فَصْلَ الشِّتَاءِ، وَيَبْقَى غَائِلَةَ الْبَرْدِ، إِذَا حُرِمَ صُوفُنَا النَّافِعَ الَّذِي لَا غَنَى لَهُ عَنْهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ؟ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَمُوتُ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ، لِأَنَّهُ يَتَّخِذُ مِنْ صُوفُنَا: جُورَبَهُ الَّذِي يُغْطِي بِهِ سَاقَيْهِ، وَقَمِيصَهُ الَّذِي يُغْطِي بِهِ صَدْرَهُ، وَدَثَارَهُ وَثِيَابَهُ الْغَلِيظَةَ الَّتِي تَجْلِبُ لَهُ الدَّفَاءُ. وَمِنْ عَظْمِي يَصْنَعُ الْأَزْزَارَ وَأَيْدِي الْمُدَى (السَّكَاكِينِ). وَمِنْ أَظْلَافِي (حَوَافِرِي) يَسْتَخْرِجُ الْغَرَاءَ وَمَا إِلَى ذَلِكَ. فَكَيْفَ تَجْعَدِينَ فَضْلِي، أَوْ تُنْكِرِينَ مَزَايَايَ الْبَاهِرَةِ؟ إِنَّنِي أَقْرُرُ لَكَ — فِي غَيْرِ زَهْوٍ — أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْيشَ بِفَقْدِي، وَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَى جَدِّ فَضْلِي عَلَيْهِ.»

(تَنْظُرُ دَوَابُّ الإِصْطَبَلِ إِلَى النَّعْجَةِ، وَقَدْ اسْتَوَلَى عَلَيْهَا الْعَجَبُ وَالْدهْشَةُ جَمِيعًا، وَقَدْ أُعْجِبَتِ الدَّوَابُّ كُلُّهَا بِتِلْكَ الْحُجَجِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي أَذَلَّتْ بِهَا النَّعْجَةُ فِي فَصَاحَةِ وَوُضُوحِ.)

أُمُّ الْأَشْعَثِ (الْعَنْزَةُ، تُسْرِعُ قَائِلَةً): أَتَحْسَبِينَ أَنَّكَ انْفَرَدْتَ بِهَذِهِ الْمِيزَةِ — يَا أُمُ فَرْوَةَ — مِنْ بَيْنِ دَوَابِّ الْأَرْضِ قَاطِبَةً (جَمِيعًا)؟ كَلَّا يَا عَزِيزَتِي، لَمْ تَنْفَرِدِي بِهَا؛ فَقَدْ حَدَّثْتَنِي أُمِّي أَنَّ دَابَّةً مِنْ بَنَاتِ عَمِّي — تَعِيشُ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ النَّائِيَةِ — لَهَا شَعْرٌ طَوِيلٌ نَاعِمٌ، وَأَنْتَبَتَ لِي أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ صُوفِكَ وَأَجْمَلُ، وَأَنَّ النَّاسَ يَصْنَعُونَ مِنْهُ ثِيَابًا أَفْخَمَ مِنْ تِلْكَ الَّتِي يَصْنَعُونَهَا مِنْ صُوفِكَ، وَالَّتَيْنِ مَلَمَسًا، وَأَعْلَى ثَمَنًا. وَقَدْ عَاشَ بَعْضُ حِيرَانِنَا فِي حَيْمَةٍ مَنْسُوجَةٍ مِنْ شَعْرِنَا الْمَتِينِ، كَمَا حَدَّثْتَنِي بِذَلِكَ أُمِّي، مِنْ حَدِيثِ طَوِيلٍ، حَتَّمْتُه قَائِلَةً: «إِنَّنَا — مَعْسَرُ الْمَعِيزِ — قَدْ أَصْبَحْنَا مَضْرَبَ الْمَثَلِ فِي الْقَنَاعَةِ بِكُلِّ مَا نَحْصُلُ عَلَيْهِ مِنَ الْغِذَاءِ الَّذِي لَا يَقْنَعُ بِهِ غَيْرُنَا مِنَ الدَّوَابِّ. فَنَحْنُ نَكْتَفِي بِمَا نَلْقَاهُ فِي طَرِيقِنَا مِنَ الْحَشَائِشِ وَقَشْرِ الشَّجَرِ، وَنَقْنَعُ بِمَا يَقْدَمُ إِلَيْنَا مِنْ قَشْرِ الْبُطِيخِ وَفَضَلَاتِ الْأَطْعِمَةِ، وَنَسْتَمْرِي فُتَاتَ الْخُبْزِ الْجَافِّ ...»

أُمُّ فَرْوَةَ (النَّعْجَةُ): «لَسْتُ أَعْرِفُ ابْنَةَ عَمِّكَ هَذِهِ، وَمَا أَدْرِي مَا هِيَ، لِأَنِّي لَمْ أَرَهَا طُولَ حَيَاتِي قَطُّ. وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ، فَإِنَّكَ قَلِيلَةُ الْفَائِدَةِ يَا أُمُّ الْأَشْعَثِ. وَلَيْسَ فِيكَ مِنْ الْمِيزَاتِ مَا يَدْعُوكَ إِلَى الزَّهْوِ وَالْمُبَاهَاةِ. أَلَا تَرَيْنَ تِلْكَ الْخُصَلَ الْجَامِدَةَ — مِنَ الشَّعْرِ — الَّتِي فَوْقَ ظَهْرِكَ؟ فَخَبِّرِينِي: أَيُّ فَائِدَةٍ تُرْجَى مِنْهَا؟ وَأَيُّ ثَوْبٍ جَمِيلٍ يُصْنَعُ مِنْ نَسِيجِهَا؟ أَتُحِبِّينَ أَنْ أُخْبِرَكَ عَمَّا يَصْلُحُ لَهُ جِلْدُكَ هَذَا؟ إِنَّ النَّاسَ يَصْنَعُونَ مِنْهُ — بَعْدَ مَوْتِكَ — سِيَّاطًا لِتَأْدِيبِ الْكِلَابِ الْعَاصِيَةِ الْمُتَمَرِّدَةِ!»

أُمُّ الْأَشْعَثِ (الْعَنْزُ، تُخَاطَبُ النَّعْجَةَ): «لَسْتُ أَعْرِفُ إِلَّا مَخْلُوقًا وَاحِدًا جَدِيرًا بِالْعِقَابِ وَالتَّأْدِيبِ، هُوَ أَنْتَ يَا عَزِيزَتِي. فَتَرِيْنِي (تَمَهَّلِي وَانْتَظِرِي) قَلِيلًا حَتَّى نَخْرُجَ إِلَى الْخَلَاءِ، وَأَنَا زَعِيمَةُ (كَفِيلَةُ) لِكَ بِتَأْدِيبِكَ وَسَيَعْلَمُكَ قَرْنَايَ كَيْفَ تُحْسِنِينَ الْقَوْلَ فِيمَا بَعْدُ!»

الطَّلِيُّ (الْحَمَلُ، بِصَوْتِهِ الصَّغِيرِ الْمُضْطَرِبِ): «كُونِي عَلَى ثِقَةٍ أَنَّنِي لَا أَرْضَى أَنْ تُضْرِبِي أُمِّي، وَلَنْ أُمَكِّنَكَ مِنْ ذَلِكَ!»

ابْنُ وَازِعٍ (كَلْبُ الْحَرَسِ، وَهُوَ جَائِعٌ أَمَامَ الْبَابِ): «عَو! عَو! أَلَا تَكْفُونَ عَنْ هَذَا الصَّخَبِ أَيُّهَا الْعَابِتُونَ الْمُسْتَهْتَرُونَ؟!»

يَا سَاكِنِي الْإِصْطَبِلِ، يَا سَاكِنِي الزَّرِيْبَةِ، يَا سَاكِنِي الْمَرْبِضِ، يَا سَاكِنِي الْمُعْطِنِ: هَذِهِ ثَرْتَرَةٌ لَا تَطَاقُ. مَا بِالْكُمِّ تَتَصَايَحُونَ (يَصِيحُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ) هَلْ جُنُنْتُمْ هَذَا الْمَسَاءَ؟ لَقَدْ أَزْعَجْتُمُونِي، وَنَغَضْتُمْ عَلَيَّ صَفَوْ مَنَامِي أَلَا إِنِّي مُنْذِرُكُمْ أَنَّنِي مُفْضٍ إِلَى سَيِّدِي (مُحَدِّثُهُ وَمُخْبِرُهُ) بِمَا تَفْعَلُونَ، إِذَا لَمْ تَكْفُوا عَنْ هَذَا الشَّغَبِ. وَهُوَ — فِيمَا أَرَى — كَفِيلٌ بِتَأْدِيبِكُمْ. فَحَذَارِ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتًا بَعْدَ الْآنِ»

(تَسَكَّتِ الدَّوَابُّ جَمِيعًا، وَتَدِيرُ الْخَنَسَاءُ لِسَانَهَا الْجَافَ فِي مَزْوِدِهَا، وَتَجْتَرُّ أُمُّ فَرْوَةَ، وَيَجْتَوِ الطَّلِيُّ تَحْتَهَا لِيَشْرَبَ مِنْ ضَرْعِهَا جَرَعَاتٍ مِنَ اللَّبَنِ. أَمَّا أَبُو دَلْفٍ فَيَقْتَرِبُ مِنَ الْحَائِطِ، وَيَظِلُّ يَحْكُ جِسْمَهُ بِهَا. وَيَحْرُكُ أَبُو زِيَادٍ أُذُنَيْهِ الطَّوِيلَتَيْنِ. ثُمَّ تَخْرُجُ فَارَةٌ مِنْ جُحْرِهَا فَيَفْرَعُ «أَبُو بَجِيرٍ» وَيَقْفِرُ — مِنْ شِدَّةِ الدَّعْرِ — فَتَعُودُ الْفَارَةُ إِلَى جُحْرِهَا خَائِفَةً. وَتَدُقُّ السَّاعَةُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ دَقَّةً، وَيَعُودُ ابْنُ وَازِعٍ إِلَى وَجَارِهِ.)



الْحَنَسَاءُ (الْبَقَرَةُ، بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ بَعْدَ صَمْتٍ طَوِيلٍ): «يَسْتَحِيلُ عَلَيَّ النَّوْمُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ. شَدَّ مَا أَخْطَأْتُ «أُمَّ فَرْوَةَ» وَ«أُمَّ الْأَشْعَثِ»! لَقَدْ خَرَجْنَا عَنْ جَادَةِ الْأَدَبِ (طَرِيقِهِ) فِي جَوَارِهِمَا (مُنَاقَشَتِهِمَا)، وَلَيْسَ يَجْدُرُ بِمِثْلِ هَاتَيْنِ الصَّدِيقَتَيْنِ الْمُؤَدَّبَتَيْنِ أَنْ تَخْرُجَ بِهِمَا الْمُنَاقَشَةُ، وَتَصِلَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ. إِنَّهُمَا ابْنَتَا عَمٍّ، وَلَيْسَ يَجْدُرُ بِالْأَقَارِبِ أَنْ يَتَنَازَعُوا ... فَهَلُمِّي يَا «أُمَّ فَرْوَةَ» وَأَتِمِّي حَدِيثَكَ الَّذِي بَدَأْتَهُ، حَتَّى نَتَعَرَّفَ فَوَائِدِكَ كُلَّهَا.»

أُمَّ فَرْوَةَ (النَّعْجَةُ): «أَتَمَّ حَدِيثِي بِكُلِّ ارْتِيَاكِ يَا عَزِيزَتِي، إِذَا ضَمِنْتَ لِي صَمْتَ «أُمِّ الْأَشْعَثِ» وَاعْتَصَامَهَا بِالْهُدُوءِ ... لَقَدْ حَدَّثْتُكُمْ — يَا رِفَاقُ — أَنَّ لَبْنِي لَزِيدُ الطَّعْمِ، وَأَنَّ لَحْمِي شَهِيٌّ، سَائِغٌ هَنِيءٌ. وَلَسْتُ أَغْلُو وَلَا أُسْرِفُ، إِذَا قُلْتُ لَكُمْ: إِنَّهُ أَفْضَلُ لَحْمٍ فِي الدُّنْيَا.»

أُمُّ الْأَشْعَثِ (العَنْز): «وَلَا تَنْسِي أُنْنِي أَنَا أَيُّضًا ...»

الْحَنَسَاءُ (البَقْرَة): «اسْكُتِي — يَا أُمُّ الْأَشْعَثِ — وَاصْبِرِي حَتَّى يَأْتِيَ دَوْرُكَ!»

أُمُّ فَرْوَة (النَّعْجَة): «إِنْنِي لَمْ أَتِمَّ كَلَامِي بَعْدُ ... فَاعْلَمُوا أَنَّ النَّاسَ يَتَّخِذُونَ مِنْ مَصَارِينِي — بَعْدَ مَوْتِي — أَوْتَارًا لِلْكَمَانِ وَالْقِيَارَةِ، لِيَعْزِفُوا عَلَيْنَهُمَا بِأَعْدَبِ الْأَلْحَانِ، وَأَرْوِعِ الْأَنْغَامِ، الَّتِي تَشْجُو السَّامِعِينَ (تَحْزُنُهُمْ) وَتُبْكِيهِمْ.»

أُمُّ الْأَشْعَثِ (العَنْز): «مَا أَعْجَبَ أَمْرَكُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَانُ الْإِعْرَاءُ ... فَأَبُو زِيَادٍ يَدُقُّ طُنْبُورَهُ، وَأَنْتِ — يَا أُمُّ فَرْوَة — تَعْزِفِينَ عَلَى كَمَانِكَ. وَمِنْكُمْ تَتَأَلَّفُ مُوسِيقَى مُزْدَوِجَةٍ بَارِعَةً!»

أُمُّ فَرْوَة (النَّعْجَة تُخَاطِبُ الْعَنْزَ فِي هُدُوءٍ): «لَا تَسْخَرِي مِنِّي — أَيُّهَا الرِّفِيقَةُ الْعَزِيزَةُ — فَإِنِّي مُلْخَصَةٌ لِكَ طَائِفَةٍ مِنْ قَوَائِدِي الَّتِي أَجُودُ بِهَا لِلنَّاسِ. فَهَلُمِّي — يَا ابْنَةُ الْعَمِّ — وَعُدِّي عَلَى قَرْنِكَ مَا أَنَا ذَاكِرَتُهُ:

أَوَّلًا: أَجُودُ لَهُمْ بِلَحْمِي.

ثَانِيًا: أَمْنَحُهُمْ جِلْدِي.

ثَالِثًا: أُعْطِيهِمْ مَصَارِينِي، لِيَصْنَعُوا مِنْهَا أَوْتَارَ الْكَمَانِ.

رَابِعًا: لَا أَضِنُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَدْرُهُ ضَرْعِي مِنَ اللَّبَنِ السَّائِعِ الشَّهِي.

خَامِسًا: لَا أَبْخُلُ بِشَحْمِي الَّذِي يَصْنَعُونَ مِنْهُ الشَّمْعَ.

سَادِسًا: أَدُرُّ عَلَيْهِمْ لَبَنِي الَّذِي يَصْنَعُونَ مِنْهُ الزُّبْدَ وَالْجُبْنَ وَالْقَشْدَةَ.

وَبَعْدُ، أَفَلَا يَكْفِيكَ هَذَا؟ أَتُرِيدِينَ أَنْ أُسْتَرْسَلَ فِي عَدِّ مَاتِرِي، وَمِيزَاتِي النَّادِرَةِ، أَمْ يُحْسِبُكَ (يَكْفِيكَ) هَذَا الْقَدْرُ؟!»

الْحَنَسَاءُ (البَقْرَة تُخَاطِبُ النَّعْجَة): «أَحْسَنْتِ — يَا أُمُّ فَرْوَة — وَقَدْ أَقْرَرْنَا لَكَ جَمِيعًا بِالسَّبْقِ، وَاعْتَرَفْنَا أَنَّكَ مِنْ أَنْفَعِ الدَّوَابِّ لِسَيِّدِنَا الْإِنْسَانِ. وَالْآنَ جَاءَ دَوْرُكَ يَا أُمُّ الْأَشْعَثِ، فَادْكُرِي لَنَا مَزَايَاكَ، عَلَى أَنْ تَتَحَدَّثَ إِلَيْنَا بِصَوْتِ هَادِي رَزِينٍ، حَتَّى لَا يَسْمَعَكَ «ابْنُ وَازِعِ» (الْكَلْبُ) فَيَنْغَصَّ عَلَيْنَا صَفُونًا.»

أُمُّ الْأَشْعَثِ (الْعَنْزُ): «أَنَا أَمْنَحُ سَيِّدِي مَقْدَارًا كَبِيرًا مِنَ اللَّبَنِ الدَّسِمِ، الَّذِي يَحْوِي مِنْ عَنَاصِرِ التَّغْذِيَةِ شَيْئًا كَثِيرًا. وَهُوَ يَشْفِي الْمَرْضَى — كَمَا تَعْلَمُونَ — وَيَغْذِي صِغَارَ الْأَطْفَالِ. وَلَا تَنْسُوا أَنَّي خَيْرٌ مُعِينٌ لِلْفُقَرَاءِ، لِأَنِّي أَقْنَعُ مِنَ الْغِذَاءِ بِالتَّافِهِ الْقَلِيلِ، وَأَجُودُ لَهُمْ وَلِأَوْلَادِهِمْ بِالْغِذَاءِ الطَّيِّبِ الْوَفِيرِ (الكثير). ثُمَّ إِنَّ لَحْمِي سَائِعٌ شَهِي، وَلَنْ يَضِيرَنِي أَنَّي نَحِيفَةُ الْجِسْمِ، وَأَنَّ لَحْمِي — لِذَلِكَ — جَامِدٌ شَيْئًا مَا. عَلَى أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ خَطِيئِي، فَقَدْ أَذِيتُ — عَلَى كُلِّ حَالٍ — وَاجِبِي. وَلَيْسَ جِلْدِي بِأَقْلَ مِنْ جِلْدِ غَيْرِي صَلَاحِيَّةً لِلنَّاسِ.»

الْحَنَسَاءُ (الْبَقَرَةُ): «لَسْنَا نَشْكُ — يَا أُمُّ الْأَشْعَثِ — فِي نَفْعِكَ. وَلَكِنْ حُرِّمَتِ الصُّوفَ الَّذِي مُنِحَتْهُ أُمُّ فَرْوَةَ، لَقَدْ وَهَبَكَ اللهُ مِيرَةً أُخْرَى، فَإِنَّكَ تَدْرِيْنَ مَقْدَارًا كَبِيرًا مِنَ اللَّبَنِ السَّائِعِ الَّذِي يَحْوِي قَشْدَةً فَاحِرَةً. وَحَسْبُكَ — يَا عَزِيزَتِي — أَنَّكَ مُؤْنِسَةُ الْفَقِيرِ، وَمُعِينَتُهُ، وَمَانِحَتُهُ كُلَّ مَا تَمْلِكِينَ، فَانْعَمِي بِحُبِّ الْفَقِيرِ إِيَّاكَ، فَقَدْ بَدَلَتْ لَهُ وَسْعَكَ، وَحَاوَلْتَ إِمْكَانَكَ. وَلَيْسَ يَطْلُبُ مِنْكَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ. لَقَدْ أَمَنَّا بِفَضْلِكَ، وَاعْتَرَفْنَا بِمَزَايَاكَ وَنَفْعِكَ. فَهَلْ يَسْرُكَ هَذَا الْإِعْتِرَافُ؟ انْهَبِي — إِذَنْ — يَا عَزِيزَتِي فَصَالِحِي أُمُّ فَرْوَةَ.»

أُمُّ فَرْوَةَ (النَّعْجَةُ، تَقَرَّبُ مِنَ الْعَنْزِ وَتَنْظُرُ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهَا اللَّطِيفَتَيْنِ وَاللِّمْعُ يَتَرَفَّقُ فِيهِمَا): «اصْفَحِي عَنِي — يَا أُمُّ الْأَشْعَثِ — وَاعْفِرِي لِي طِيشِي وَحِمَاقَتِي، فَقَدْ حَزَنَتْنِي، وَالْمَنِي — لَوْ تَعْلَمِينَ! — أَنَّي كُنْتُ مَصْدَرَ مُضَايَقَتِكَ، وَمَبْعَثَ غَضَبِكَ، فَلَنَعُدَّ صَدِيقَتَيْنِ، كَمَا كُنَّا مِنْ قَبْلُ:

وَلَا كَانَ، وَلَا صَارَ وَلَا قُلْتُمْ، وَلَا قُلْنَا
وَمَا أَحْسَنَ أَنْ نَرْجِعَ لِلْوُدِّ كَمَا كُنَّا!

فَهَلْ تَصْفَحِينَ؟»

(فَتَقْدُمُ الْعَنْزُ إِلَى النَّعْجَةِ وَتَلْحَسُ طَرَفَ فَمِّهَا مُتَوَدِّدَةً فَرَحَانَةً، وَهَكَذَا يَتِمُّ الصُّلْحُ بَيْنَهُمَا. وَقَدْ سَادَ الْكَرَى — حِينَئِذٍ — وَاسْتَوَلَى النَّوْمُ عَلَى أَكْثَرِ دَوَابِّ الإِصْطَبَلِ، وَعَلَا تَنَفُّسُ «لَا حَقَّ» وَ«أَبِي زِيَادٍ»، كَمَا عَلَا شَخِيرُ «أَبِي ذَلْف» الَّذِي انْتَحَى رُكْنًا مِنَ الإِصْطَبَلِ حَيْثُ مَدَّ رِجْلَيْهِ وَاسْتَسْلَمَ لِلنَّوْمِ. وَرَقَدَ «الطَّيِّبُ» وَ«أَبُو

فِي الْإِسْطَبْلِ

بُجَيْرٌ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ، ثُمَّ سَرَى النَّوْمُ إِلَى الْبَاقِينَ، فَأَخَذُوا يُغْمِضُونَ أَجْفَانَهُمْ
شَيْئًا. ثُمَّ نَامَ الْجَمِيعُ وَرَاحُوا فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ.



عَالَمُ الْإِصْطَبَلِ

الفصل الأول

(١) صوتُ في اللَّيْلِ

قَالَتْ بَطْلَةُ الْقِصَّةِ «قَسَامَةٌ» تُحَدِّثُ نَفْسَهَا ذَاتَ لَيْلَةٍ: «أَيُّ صَوْتِ هَذَا الَّذِي يَنْبَعِثُ فِي سَكُونِ اللَّيْلِ فَيُوقِظُنِي مِنْ سُبَاتِي الْآنَ، وَيُنَبِّهُنِي مِنْ نَوْمِي الْعَمِيقِ! أَيُّ نَهْيٍ أَسْمَعُ؟ وَمَا بَالُ هَذَا الطَّارِقِ (الزَّائِرِ) فِي اللَّيْلِ الْغَاسِقِ (الشَّيْءِ الظَّلَامِ) يَضْطَرُّنِي إِلَى النُّهُوضِ مِنْ فِرَاشِي الْوَثِيرِ (اللَّيْنِ النَّاعِمِ) وَتَرَكِ وَسَادَتِي الطَّرِيفَةَ الْمُؤَلَّفَةَ مِنَ الْقَشِّ، وَأَنَا مُسْتَسْلِمٌ لِلرَّاحَةِ وَالِدَّعَةِ (الْهُدُوءِ وَالسَّكِينَةِ)! لَقَدْ رَفَعْتُ رَأْسِي، وَنَصَبْتُ أُذُنِي، وَأَرْهَفْتُ مِسمَعِي، لِأَتَعْرِفَ جَلِيَّةَ الْخَبَرِ (حَقِيقَتَهُ).»

(٢) فَرَعُ قَسَامَةٍ

كَانَ الْإِصْطِبَلُ قَاتِمًا (مُظْلِمًا) جَدًّا فَلَمْ أَتَبَيَّنْ — فِي ظِلَامِهِ الْحَالِكِ (الشَّيْءِ السَّوَادِ) — شَيْئًا مِمَّا حَوْلِي، وَكَانَ مَرَبِطِي أَقْرَبَ مَرَابِطِ الْإِصْطِبَلِ وَأَدْنَاهَا إِلَى الْبَابِ (أَقْرَبَهَا مِنْهُ)، وَقَدْ اضْطَرَبَ جِسْمِي وَارْتَعَشَ حِينَ سَمِعْتُ نَهْيَ ذَلِكَ الزَّائِرِ الْمُفَاجِئِ يَتَكَرَّرُ فِي فِتْرَاتٍ مُتَقَطِّعَةٍ، وَفِيهِ رَنَّةٌ حُزْنٍ لَا تَخْفَى عَلَى سَامِعِهِ.

(٣) سَائِسُ الْإِصْطَبْلِ

وَسَمِعْتُ صَوْتَ سَائِسِنَا «شَفِيقٍ» وَأَحْسَسْتُ دَيْبَ أَقْدَامِهِ (وَقَعَ أَرْجُلُهُ) وَقَدْ اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ اللَّذِيذِ. وَكَانَ يَأْوِي إِلَى غُرْفَةِ خَشَبِيَّةٍ فِي أَعْلَى الْإِصْطَبْلِ بِجَوَارِ مَخْرَنِ الدَّرِيسِ. لَقَدْ كَانَ آيَةً مِنْ آيَاتِ الرَّحْمَةِ، وَمَثَلًا مِنْ أُمَثَلَةِ النَّجْدَةِ. فَلَا عَجَبَ إِذَا لَمْ يَتَبَرَّمْ (لَمْ يَضْجَرْ) بِضَيْفِهِ، وَلَمْ يَضُقْ بِهِ ذَرْعًا (لَمْ تَضْعُفْ طَاقَتُهُ عَنْ احْتِمَالِهِ) بَلْ نَهَضَ مِنْ فِرَاشِهِ نَاشِطًا مُلَبِّيًا (مُجِيبًا) دَاعِي الْمُرُوءَةِ. وَهَبَطَ مِنْ سُلَّمِهِ الْخَشَبِيِّ إِلَى أَرْضِ الْإِصْطَبْلِ — وَفِي يَدِهِ مِصْبَاحُهُ — وَفَتَحَ الْبَابَ الْخَارِجِي لِلْإِصْطَبْلِ لِيَدْخُلَ ذَلِكَ الضَّيْفُ الْمُسْكِينُ. وَكَانَ «شَفِيقُ» يَجْمَعُ كَلَامَهُ (يَنْطِقُ بِالْفَافِ لَا يَتَبَيَّنُهَا سَامِعُهَا)، وَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِالْفَافِ مُتَقَطِّعَةً عَلَى طَرِيقَتِهِ الَّتِي أَلْفَنَاهَا (تَعَوَّدْنَاهَا) مِنْهُ، فَلَمْ تَبْقَ غَرِيبَةً عَلَيْنَا.

(٤) تَبَادُلُ الْإِحْلَاصِ

وَلَوْ رَأَاهُ غَيْرُنَا — مِمَّنْ لَا يَعْرِفُهُ — لَحَسِبَهُ غَاضِبًا عَلَى هَذَا الضَّيْفِ الطَّارِقِ (زَائِرِ اللَّيْلِ) الَّذِي أَقْظَلَهُ مِنْ رُقَادِهِ اللَّذِيذِ. أَمَّا نَحْنُ — مَعْشَرَ دَوَابِّ الْإِصْطَبْلِ — فَقَدْ خَبَرْنَاهُ وَعَرَفْنَاهُ نَبَالَهُ خُلُقَهُ (نَجَابَتَهُ) وَكَرَمَ عُنْصَرِهِ (طِيبَ أَصْلِهِ). وَقَدْ أَصْفَيْنَاهُ الْوَدَّ (صَدَقْنَاهُ الْإِحْاءَ)، وَمَحَضْنَاهُ (أَخْلَصْنَا لَهُ) الْحُبَّ، مُنْذُ قَدِمَ عَلَى الْإِصْطَبْلِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَهُوَ يَافِعُ (شَابُّ نَاشِئٌ) فَبَادَلْنَا الْإِحْلَاصَ، وَغَمَرْنَا بِأَيَادِيهِ (بَالَعَ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْنَا، وَأَعْدَقَ عَلَيْنَا صَنَائِعَهُ وَنِعَمَهُ)، وَامْتَلَأَتْ نَفُوسُنَا بِالْفَافِ الرَّقِيقَةِ. وَكَانَ لَا يَبْنِي (لَا يَكْسِلُ) عَنْ تَرْبِيتِ ظُهُورِنَا (مَسَّهَا بِيَدِهِ، تَحَبَّبًا إِلَيْنَا، وَاسْتِجْلَابًا لِمَوَدَّتِنَا)، وَهُوَ يَنْتَسِمُ — فِي لُطْفٍ وَحَدَبٍ (تَعْطُفٍ) — كَلِمًا مَرَّ بِنَا.

وَهُوَ شَدِيدُ الْإِعْجَابِ بِي، دَائِمُ الْعُطْفِ عَلَيَّ. وَقَدْ اخْتَارَ لِي أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ، فَأَطْلَقَ عَلَيَّ اسْمَ «قَسَامَةِ» (حُسْنٍ) لِأَنَّنِي — فِيمَا يَرَى — أَجْمَعُ بَيْنَ جَمَالِ الصُّورَةِ، وَكَرَمِ الطَّبْعِ، وَجَدَةِ الدُّكَاءِ. كَمَا سَمَى وَلَدِي الصَّغِيرَ «سَوَادَةً» وَأَطْلَقَ عَلَيْهِ لَقَبَ «زَادِ الرُّكْبِ». وَهُوَ يُؤَثِّرُنِي (يُفَضِّلُنِي) وَمَهْرِي عَلَى كُلِّ فَرَسٍ.

(٥) أَشْهُرُ الْحَمْلِ

وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ لِهَذَا الرَّجُلِ الْكَرِيمِ فَضْلَهُ عَلَيَّ فِي أَشْهُرِ الْحَمْلِ، فَقَدْ بَدَلَ مَا فِي وَسْعِهِ فِي الْعِنَايَةِ بِأَمْرِي، حِينَ كُنْتُ عُشْرَاءَ، وَظَلَّ يَتَعَهَّدُنِي وَيَرْعَانِي أَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا كَامِلَةً، حَتَّى وَضَعْتُ وَلَدِي الْبُكَرَ «زَادَ الرُّكْبَ». وَكَانَ يُعْنَى بِرِيَاضَتِي، وَتَنْظِيفِ مَرْبِطِي وَفَرَاشِي، وَتَنْقِيَةِ غَدَائِي، وَجَلْبِ الْمَاءِ فِي إِنَاءٍ نَظِيفٍ. وَلَمْ أَتِمَّ الشَّهْرَ التَّاسِعَ مِنْ أَشْهُرِ الْحَمْلِ، حَتَّى ضَاعَفَ عِنَايَتَهُ، وَأَرَاخَنِي مِنْ كُلِّ عَمَلٍ. وَكَانَ يُحِلُّنِي فِي النَّهَارِ أَجْمَلَ مَحَلٍّ خَارِجِ الْحَظِيرَةِ، حَيْثُ الْهَوَاءُ الطَّلُقُ، فَإِذَا جَنَّ اللَّيْلُ (أُظْلِمَ) أَحْلَنِي أَرْحَبَ مَكَانٍ فِي الْحَظِيرَةِ. وَمَا زَالَ يَغْمُرُنِي بِعُطْفِهِ وَلُطْفِهِ، وَيَجْلِلُنِي (يُعْطِينِي) بِثَوْبٍ غَلِيظٍ يَقِينِي أَدَى التِّيَّارِ، حَتَّى أَتِمَمْتُ الشَّهْرَ الْحَادِي عَشَرَ.

(٦) فِي عَالَمِ الْأَحْلَامِ

فَلَمَّا انْتَصَفَ الشَّهْرَ الثَّانِي عَشَرَ — أَوْ كَادَ — رَأَيْتُ فِي مَنَامِي حُلْمًا عَجِيبًا، هَشَّتْ (فَرِحَتْ) لَهُ نَفْسِي، وَابْتَهَجَ لِرُؤْيَيْهِ قَلْبِي أَيَّمَا ابْتِهَاجٍ. وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ مَا حَيِّتُ طِيبَ هَذَا الْمَنَامِ.

فَقَدْ رَأَيْتُنِي بَيْنَ جَمَاعَةٍ مِنْ كَرَائِمِ الْأَفْرَاسِ وَالْمَهَارِ، وَقَدْ أَقْبَلَنَ عَلَيَّ فَرِحَاتٍ، وَاسْتَقْبَلَنَ مَوْلُودِي الْجَدِيدَ مُهَلَّلَاتٍ، صَاهِلَاتٍ بِأَعْدَبِ الْأَغَانِي مُنْشِدَاتٍ، مُحَمِّمَاتٍ بِأَغَارِيدِهِنَّ مُتَرَنَّمَاتٍ.

وَقَدْ عَلِمْتُ مِنْ حَدِيثِهِنَّ أَنَّهِنَّ طَائِفَةٌ مِنْ سَوَالِفِنَا الْكَرِيمَاتِ، وَجَدَّاتِنَا الْعَرَبِيَّاتِ الْأَصِيلَاتِ، فِي الْعُصُورِ الْغَابِرَاتِ (الْقَدِيمَاتِ). وَقَدْ رَوَيْنَ لِي مِنْ بَدَائِعِ الْأَخْبَارِ، وَعَجَائِبِ الْأَسْمَارِ، مَا لَمْ يَكُنْ لِيخْطُرُ لِي عَلَى بَالٍ. وَعَرَفْتُ مِنْهِنَّ طَائِفَةً نَبِيلَةً لِبَعْضِ أُمَرَاءِ الْعَرَبِ الْقُدَامَى (الْقُدَمَاءِ) مِنَ الْأَعْوَجِيَّاتِ (بَنَاتِ «أَعَوْجَ» جَدَّنَا الْعَظِيمِ) الَّتِي يَفْخَرُ بِهَا تَارِيخُنَا الْكَافِلُ الْمَجِيدُ. وَمَا زِلْتُ أَتَمَثَّلُ تِلْكَ الْوُفُودَ الْكَرِيمَةَ — مِنْ بَنَاتِ «الْعُسْجَدِي» وَبَنَاتِ «أَعَوْجَ» — وَقَدْ فَاضَتْ وَجُوهُهُنَّ بِشَرًّا. وَاشْتَرَكَ مِنْهِنَّ فِي الْغِنَاءِ «ذُو الْعُقَالِ» وَ«دَاحِسُ»، وَ«الْغُبَرَاءُ»، وَ«سَبَلُ»، وَ«عَلَوَاءُ»، وَ«الْجَرَادَةُ»، وَ«الْخَطَّارُ»، وَ«الْحَنْفَاءُ»، وَ«الشَّقْرَاءُ»، وَ«الْعَوْجَاءُ»، وَ«السَّمَاءُ»، وَ«الزَّغْفَرَانُ»، وَ«الْكُمَيْتُ»، وَ«الْبَطِينُ»، وَ«الصَّرِيحُ»،

وَ«الْوَصِيفُ»، وَ«أَعْوَجُ الْأَصْغَرُ»، وَ«أَعْوَجُ الْأَكْبَرُ»، وَ«الدِّينَارُ»، وَوَلَدُهُ «الْعَجُوسُ»، وَمَا إِلَيْهِنَّ مِنْ كَرَائِمِ الْخَيْلِ اللَّائِي نَبْهَجُ لِأَخْبَارِهِنَّ، وَنَعْتَزُّ بِالِانْتِسَابِ إِلَيْهِنَّ.

(٧) الْمَوْلُودُ الْجَدِيدُ

وَانْتَبَهْتُ مِنْ نَوْمِي فَرِحَةً مُسْتَبْشِرَةً، وَلَمْ تَنْقُضْ سَاعَاتٌ قَلِيلَةً حَتَّى وَضَعْتُ — فِي عَالَمِ الْيَقْظَةِ — هَذَا الْمَوْلُودَ الَّذِي رَأَيْتُهُ فِي عَالَمِ الْأَحْلَامِ. وَتَمَّهَ أَسْرَعَ السَّائِسُ إِلَيَّ — مِنْ فَوْرِهِ — فَمَزَّقَ الْأَغْشِيَةَ الَّتِي كَانَتْ تَحِيطُ بِالْجَنِينِ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ إِلَيَّ الْإِحْسَانُ كُلَّهُ — بِمَا فَعَلَ — فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَوْ غَفَلَ ذَلِكَ (لَوْ تَرَكَهُ)، لَأَخْتَنَقَ الْجَنِينُ عَقَبَ وَلَادَتِهِ. ثُمَّ قَدَّمَهُ لِي كَيَّ أَلْعَقَهُ لِأَكْسِبَهُ شَيْئًا مِنَ النَّشَاطِ. إِلَهْ مَا أَجْمَلَهُ! نَفْسِي فِدَاءُ هَذَا الْمَوْلُودِ الطَّرِيفِ: لَقَدْ هَمَّ بِالنُّهُوضِ مُحَاوِلًا أَنْ يَقِفَ عَلَى أَقْدَامِهِ — كَمَا تَقِفُ أُمُّهُ — فَلَمْ يَقَوْ عَلَى ذَلِكَ. وَظَلَّ يَتَرَجَّحُ — يَمْنَةً وَيَسْرَةً — مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، ثُمَّ يَقَعُ عَلَى أَحَدِ جَنْبَيْهِ فَوْقَ الْفِرَاشِ الْوَتِيرِ (الَلِّينِ) الَّذِي غَنِي السَّائِسُ بِإِعْدَادِهِ، وَأَنَا جِدُّ مُشْفِقَةٍ عَلَيْهِ. وَلَمْ تَمَرَّ عَلَى هَذِهِ الْمُحَاوَلَاتِ نِصْفُ سَاعَةٍ تَقْرِيْبًا حَتَّى اسْتَمْسَكَ، وَقَوِيَتْ أَقْدَامُهُ عَلَى النُّهُوضِ، فَوَقَفَ مُتَنَبِّئًا، دُونَ أَنْ يَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ. وَمَا لَبِثَ أَنْ اهْتَدَى إِلَى ضَرْعِي (تُدِّي) (وَالضَّرْعُ لَنَا — مَعْشَرَ الْأَفْرَاسِ وَلِعَزِينَا مِنَ الشَّاءِ وَالْبَقَرِ وَنَحْوِهَا — مُدْرُ اللَّبَنِ: مِثْلُ الْخَلْفِ لِلنَّاقَةِ، وَالتُّدْيِ لِلْمَرَاةِ). وَلَمْ أَعْجَبْ لِذَلِكَ، فَقَدْ أَرَشَدْتُهُ إِلَيْهِ فِطْرَتُهُ السَّلِيمَةُ، وَغَرِيزَتُهُ (طَبِيعَتُهُ) الْقَوِيْمَةُ. وَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَرَضَعَ مِنْ ضَرْعِي مَا شَاءَ حَتَّى ارْتَوَى وَشَبِعَ. وَلَمْ يَنْسَنِي السَّائِسُ، بَلْ غَنِي بِي فِي الصَّبَاحِ، فَعَسَلَ ذَيْلِي وَأَرْجُلِي وَأَفْخَازِي. وَأَحْضَرَ لِي غِدَاءً طَيِّبًا: مِنْ بَرَسِيمِ شَهِي، وَمَاءٍ دَافِي هَنِي.

وَمَا زَالَ يَنْعَهْدُنِي فِي أَيَّامِ الرِّضَاعِ حَتَّى عَادَتْ إِلَيَّ صِحَّتِي وَنَشَاطِي فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ. وَقَدْ أَطْلَقَ عَلَى وَلِيدِي الْعَزِيزِ لَقَبًا ظَرِيفًا يَدُلُّ عَلَى ذَوْقِي عَالٍ أَصِيلٍ، وَهُوَ: «زَادُ الرِّكْبِ». وَقَدْ أَصْبَحَ «زَادُ الرِّكْبِ» أَحَبَّ مَخْلُوقٍ إِلَيَّ نَفْسِي، فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَقَدْ ابْتَهَجْتُ بِمَا يَنْعَمُ بِهِ مِنْ صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ. وَلَمْ يَنْقُضْ عَلَى هَذَا الْمَوْلُودِ أُسْبُوعٌ وَاحِدٌ حَتَّى أَصْبَحَ قَادِرًا عَلَى الْجَرْيِ إِلَى جَانِبِي، وَصَارَ يَدُورُ مِنْ حَوْلِي فِي ذَلِكَ الْمَرْعَى الْفَسِيحِ.

الفصل الثاني

(١) الضيف الهزيل

لَقَدْ دَارَتْ بِرَأْسِي هَذِهِ الذُّكْرِيَّاتُ وَأَمْتَالُهَا، حِينَ خَرَجَ السَّائِسُ مِنَ الْحَظِيرَةِ، لِيَسْتَقْبِلَ ذَلِكَ الضَّيْفَ النَّاهِقَ الْحَزِينَ، الَّذِي حَدَّثْتُكَ بِهِ فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ وَمَرَّتْ بِذَهْنِي سَرَاعًا أَطْيَافُ الذُّكْرِيَّاتِ، كَمَا تَمُرُّ الْأَحْلَامُ. فَلَمَّا بَلَغَ بِهِ الْبَابَ نَهَضْنَا — مَعْسَرِ الدَّوَابِّ — عَلَى قَوَائِمِنَا (أَقْدَامِنَا) لِنَسْتَقْبِلَهُ، وَأَطْلَلْتُ بِرَأْسِي — مِنْ أَعْلَى بَابٍ مَرْبَاطِي — فَرَأَيْتُ عَيْنَيْنِ مَدْهُوشَتَيْنِ تَفْحَصَانِ عَنْ كُلِّ مَا يَعْرِضُ لَهُمَا، وَهِيَ سَائِرَةٌ فِي طَرِيقِهَا إِلَى مَرْبَطِهَا. وَكُنْتُ — كَمَا حَدَّثْتُكَ — أَقْرَبَ دَوَابِّ الإِصْطَبَلِ إِلَى الْبَابِ، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ رَأَى ذَلِكَ الرَّفِيقَ التَّاعِسَ الَّذِي رَجَمَهُ سَائِسُنَا «شَفِيقٌ» مِنَ الْمَطَرِ الْغَزِيرِ (الْكَثِيرِ)، وَأَنْقَذَهُ مِنْ غَائِلَةِ الْبُرْدِ الْقَارِسِ (نَجَاهُ مِنْ شِدَّتِهِ الْمُهْلِكَةِ). وَكَانَ الضَّعْفُ قَدْ بَلَغَ بِضَيْفِنَا كُلِّ مَبْلَغٍ، فَأُضْنَاهُ (أَسْقَمَهُ) وَأَمْرَضَهُ، وَهَدَّ قُوَاهُ، وَهَزَلَ جِسْمَهُ، فَأَصْبَحَ أَدْنَى (أَقْرَبَ) إِلَى الْمَوْتِ مِنْهُ إِلَى الْحَيَاةِ.

(٢) ابْنُ النِّعَمِ

وَشَعَرْتُ بِحُزْنٍ شَدِيدٍ مِنْ أَجْلِ هَذَا الضَّيْفِ التَّاعِسِ، وَقَدْ كُنْتُ خَلِيقَةً (جَدِيرَةً) أَنْ أَبْتَهَجَ (أَفْرَحَ) لَهُ، لِأَنَّ حَظَّهُ الْحَسَنَ قَدْ سَاقَهُ إِلَى حَظِيرَتِنَا الْوَادِعَةِ (السَّاكِنَةِ الْهَادِئَةِ) الَّتِي نَأْوِي إِلَيْهَا. وَمَا أَجْدَرُهُ بِحُبِّي، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ عُمُومَتِي الْمُقَرَّبِينَ. لَقَدْ بَدَأَ لِعَيْنَيَّ — حِينَئِذٍ — مَا لَقِيَهُ مِنْ سُوءِ الْمُعَامَلَةِ. فَقَدْ تَشَعَّثَ شَعْرُهُ (تَفَرَّقَ) وَتَلَبَّدَ فِي بَعْضِ جِهَاتِهِ، وَنَسَلَ (انْتَفَشَ وَسَقَطَ) مِنْ جِهَاتٍ أُخَرَ. وَظَهَرَ الشَّيْبُ وَالْهَزَالُ عَلَيْهِ، فَخِيلَ لِمَنْ يَرَاهُ، أَنَّهُ

قَدْ أَصْبَحَ هَيْكَلًا عَظِيمًا يَنْهَافَتْ (يَتَسَاقُطُ) مِنَ الضَّعْفِ، وَهُوَ يَمْشِي إِلَى مَرْبِطِهِ الْخَالِي فِي آخِرِ الْإِصْطَبِلِ.

(٣) حَدِيثُ السَّائِسِ

وَكَانَ السَّائِسُ يُرَبِّتُ أَنْفَهُ مُتَوَدِّدًا (مُتَحَبِّبًا) إِلَيْهِ، وَيَهَيِّئُ لَهُ — مِنْ أَشْتَاتِ الْقَشِّ (مُتَفَرِّقَاتِهِ) فِرَاشًا وَثِيرًا (لَيْثًا) مُرِيحًا، وَيَقُولُ لَهُ مُدَاعِبًا (مُمَارِحًا): «مَا أَطْنُكَ يَا أَبَا زِيَادٍ — وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عَتِيًّا (جَاوَزْتَ السَّنَّ الْمَأْلُوفَةَ) — بِقَادِرٍ عَلَى آدَاءِ عَمَلٍ، جَلٍّ أَوْ صَغُرٍ!

وَلَقَدْ كُنْتُ عَلَى وَشِكٍ أَنْ تَهْلِكَ سَغَبًا (تَمُوتَ جُوعًا)، بَعْدَ أَنْ بَلَغْتَ أَرْدَلِ الْعُمُرِ؛ فَمَا أَسْعَدَنِي بِخِدْمَةِ أَمْثَالِكَ مِنَ الضُّعَفَاءِ!»

فَسَرَرْنَا جَمِيعًا مِنْ هَذَا الشُّعُورِ النَّبِيلِ.

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ «شَفِيقٌ» حَدِيثَهُ، وَهُوَ يَجُولُ فِي الْإِصْطَبِلِ قَائِلًا: «مَا أَسْعَدَ حَظَّكَ — يَا أَبَا زِيَادٍ — إِذْ اهْتَدَيْتَ إِلَى حَظِيرَتِنَا. فَإِنَّهَا — لَوْ تَعَلَّمُ — الْمَلَاذُ (الْمَلَجَأُ) الْأَمِينُ لَأَمْثَالَكَ مِنَ الْعَجْزَةِ فِي هَذَا الْبَلَدِ، حَيْثُ يُسَمَحُ لَكَ بِالْبَقَاءِ فِي الْحَظِيرَةِ دُونَ أَنْ تُؤَدِّيَ عَمَلًا مَّا، فَالْبُثْ (فَاتَّقِ وَأَمْكُثْ) — إِنْ شِئْتَ — فِي هَذَا الْمَرْبِطِ إِلَى الصَّبَاحِ.»

وَمَا أُدْرِي كَيْفَ عَرَفَ أَنَّ هَذَا الضَّيْفَ يُدْعَى «أَبَا زِيَادٍ»، فَقَدْ ظَهَرَ لِي — فِيمَا بَعْدُ — أَنَّ هَذِهِ كَانَتْ كُنْيَتُهُ الَّتِي أُطْلِقَتْ عَلَيْهِ، قَبْلَ أَنْ يَدْعُوهُ بِهَا سَائِسُنَا الذَّكِيُّ.

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ السَّائِسُ كَلَامَهُ مُلْتَفِتًا إِلَيَّ قَائِلًا: «مَا أَطْنُكَ — يَا أُمَّ سَوَادَةَ — وَصَوَاحِبِكَ بِحَاجَةٍ إِلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ. فَعُدْنَ (ارْجِعْنَ) إِلَى نَوْمِكُنَّ — مَرَّةً أُخْرَى — وَتَمَتَّعْنَ بِرُقَادِكُنَّ الْهَنِيِّ وَأَحْلَامِكُنَّ السَّعِيدَةِ، فَإِنَّ عَلَيَكُنَّ فِي صَبَاحِ الْغَدِ أَعْمَالًا جِسَامًا (عَظِيمَةً خَطِيرَةً الشَّانِ).»

(٤) سُهَادُ «قَسَامَةِ»

ثُمَّ صَعِدَ السَّائِسُ دَرَجاتِ السُّلَمِ، وَهَدَّأتِ الْجَلْبَةَ (سَكَنَتِ الضَّجَّةُ) بَعْدَ قَلِيلٍ، وَنَامَ كُلُّ مَنْ فِي الْإِصْطَبَلِ. وَلَمْ يُسْمَعْ مِنْ صَوْتِ رِفاقي الدَّوَابِّ، غَيْرُ شَخِيرِهَا الْمُنبَعِثِ مِنْ مَرَابِطِهَا الدَّانِيَةِ (القَرِيبَةِ) وَالنَّائِيَةِ (الْبَعِيدَةِ). أَمَّا أَنَا فَحَالَفَنِي السُّهَادُ (صَاحِبِنِي السَّهْرُ). وَأَرَقْتُ (ذَهَبَ نَوْمِي)، فَلَمْ يَزِرْ الْكَرَى (النَّوْمُ) جَفَنِي طُولَ اللَّيْلِ. وَبَقِيتُ جَائِئَةً (لَزِمْتُ مَكَانِي فَلَمْ أَتْرُكْهُ) سَاعَةً بَعْدَ أُخْرَى، مُحَاوِلَةً أَنْ أَتَعَرَّفَ: مِنْ أَيِّ مَكَانٍ قَدِمَ هَذَا الرَّائِزُ الْغَرِيبُ؟ وَفِي أَيِّ مَوْطِنٍ وُلِدَ وَعَاشَ؟ وَعِنْدَ أَيِّ الْأَنَاسِي (النَّاسِ) الْغِلَاطِ الْأَكْبَادِ (الْقَسَاةِ الْقُلُوبِ) كَانَ؟ وَكَيْفَ طَأَوَعَتْهُمْ قُلُوبُهُمُ الْقَاسِيَةُ عَلَى طَرْدِ هَذَا الْمَسْكِينِ النَّاعِسِ إِلَى الْعَرَاءِ (الْخَلَاءِ)، وَالضَّنِّ (الْبُخْلِ) عَلَيْهِ بِالْقَوْتِ وَالْمَأْوَى، وَتَعْرِيزِهِ لِلْمَوْتِ — جُوعًا وَبَرَدًا — فِي مِثْلِ هَذَا الشَّنَاءِ الْقَارِسِ (الشَّدِيدِ الْبَرْدِ)، بَعْدَ أَنْ بَلَغَ أَرْدَلُ الْعُمْرِ.

(٥) ذِكْرِيَّاتُ

لَقَدْ ذَكَرْتُ — حِينَ رَأَيْتُ هَذَا النَّاعِسَ — مَا لَقِيتُهُ — فِي سَالِفِ أَيَّامِي — مِنَ الْمَعَامَلَةِ السَّيِّئَةِ. فَقَدْ ابْتُلَيْتُ — فِي مُقْتَبَلِ شَبَابِي — بِزَارِعِ شَرِسٍ غَضُوبٍ عَبُوسٍ، وَكَئُتْ قَدْ بَلَغْتُ الرَّابِعَةَ مِنْ عُمْرِي — فِيمَا أَذْكَرُ — وَهِيَ السَّنُّ الَّتِي بَدَأْتُ عَمَلِي فِيهَا. وَكَانَ يَشْتُمُنَا كُلَّمَا أَبْصَرْنَا، وَيَرْكُلُنَا (يَرْفُسُنَا) بِرِجْلِهِ كُلَّمَا لَقِينَا. وَمَا أَذْكَرُ، أَنَّنِي رَأَيْتُهُ — فِيمَا رَأَيْتُهُ — مَسْرُورًا قَطُّ. فَقَدْ كَانَ لِسَوْءِ حَظِّهِ وَحَظَّنَا مَغْلُوبًا عَلَى أَعْصَابِهِ (سَرِيعِ الْهِيَاجِ).

(٦) فِي الْمِحْرَاثِ

وَلَقَدْ ذَهَبْتُ إِلَى الْحَقْلِ — حِينِيذٍ — أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَأَنَا فِي تِلْكَ السَّنِّ، وَإِلَى جَانِبِي زَمِيلٌ مِنْ عِتَاقِ الْخَيْلِ (مِنْ الْأَفْرَاسِ الْكَرِيمَةِ) اسْمُهُ «دَهْمَانٌ»: قُوَّتُهُ ضَعْفُ قُوَّتِي، لِأَنَّ عُمُرَهُ ضَعْفُ عُمْرِي. وَقَدْ مَرَنَ هَذَا الْجِصَانُ عَلَى حَرْثِ الْأَرْضِ زَمَنًا طَوِيلًا. وَلَقَدْ حَاوَلْتُ إِمْكَانِي (بَدَلْتُ جُهْدِي) حَتَّى لَا أَتَّهَمَ بِالتَّقْصِيرِ. وَلَسْتُ أَنْسَى نَصِيحَةَ أُمِّي الَّتِي أَفْضَتْ بِهَا إِلَيَّ — فِي سَنِّ الطُّفُولَةِ — فَقَالَتْ: «إِنَّنَا — مَعَشَرَ الدَّوَابِّ — جَدِيرَاتُ أَنْ نَبْدُلَ لِلْعَمَلِ جُهْدَنَا كُلَّهُ. لِأَنَّ صَاحِبَنَا: رَبَّ هَذِهِ الضَّيْعَةِ خَلِيقُ (جَدِيرُ) بِأَنْ نَفْنَى فِي الْإِخْلَاصِ لَهُ، فَلَا نُقْصِرَ فِي خِدْمَتِهِ.

فَهُوَ خَيْرُ الطَّبْعِ، يَفِيضُ قَلْبُهُ حَنَانًا وَرَحْمَةً، وَلَا يَضُنُّ عَلَيْنَا بِشَيْءٍ فِي سَبِيلِ إِسْعَادِنَا
وَالْتَرْفِيهِ (التَّخْفِيفِ) عَنْ نُفُوسِنَا.»

وَقَدْ عَمِلْتُ، بِنَصِيحَتِهَا فَحَاوَلْتُ جُهْدِي إِرْضَاءَ حَارِثِ الْحَقْلِ، وَلَكِنِّي — عَلَى مَا
بَدَّلْتُ — لَمْ أَظْفَرْ بِإِرْضَائِهِ. فَدَبَّ الْيَأْسُ إِلَى قَلْبِي، وَأَيَّقَنْتُ أَنَّ كُلَّ مُحَاوَلَةٍ لِلتَّحَبُّبِ إِلَيْهِ
وَأَسْتِجْلَابِ مَوَدَّتِهِ إِنَّمَا هِيَ مُحَاوَلَةٌ غَيْرُ مُجْدِيَةٍ. فَلَمَّا وَقَرَّ (أَثَّرَ) ذَلِكَ فِي نَفْسِي، وَاسْتَقَرَّ فِي
خَلْدِي (قَلْبِي)، صَعَبَ عَلَيَّ الْعَمَلُ، وَاسْتَوَى عَلَيَّ الضَّجَرُ وَالْمَلَلُ.

أِه — يَا عَزِيزِي — كَمْ كُنْتُ مُتَعَبَةً مَجْهُودَةً، وَكَمْ أَضْنَانِي الذَّهَابُ صَاعِدَةً هَابِطَةً،
فِي ذَلِكَ الْحَقْلِ الْوَاسِعِ! وَفِي أَصِيلِ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، حَارَتْ (ضَعُفَتْ) قُوَايَ وَكُنْتُ أَسْقَطُ
مَنْ فَرَطَ الْإِعْيَاءَ (شِدَّةَ التَّعَبِ). فَهَمَمْتُ أَنْ أَقِفَ عَنْ مُوَاصَلَةِ الْعَمَلِ، وَأَكْفَ (أَمْتَنَعَ) عَنِ
الْحَرَكَةِ.

(٧) حَدِيثُ الزَّمِيلِ

وَكَأَنَّمَا أَحَسَّ زَمِيلِي الْهَرَمَ مَا يُسَاوِرُ (مَا يُغَالِبُ) نَفْسِي مِنَ الْأَلَمِ، فَقَالَ لِي: «أُبَشِّرِي —
أَبَيْتُهَا الْفَتَاةُ النَّشِيطَةُ الذَّكِيَّةُ — فَقَدْ أَشْرَفَ النَّهَارُ عَلَى نِهَائِيَّتِهِ — أَوْ كَادَ — وَتَرَاءَتْ
الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ خَلْفَ هَذِهِ التَّلَالِ وَالْأَكَامِ. وَلَعَلَّنَا لَا تَحْرُثُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا أُخْدُودًا أَوْ
أُخْدُودَيْنِ فَقَطْ، ثُمَّ نَعُودُ إِلَى حَظِيرَتِنَا مَسْرُورَيْنِ.» فَاسْتَعَدْتُ — حِينَئِذٍ — شَيْئًا مِنَ
النَّشَاطِ، وَجَذَبْتُ الْمِحْرَاةَ بِقُوَّةٍ، ثُمَّ قُلْتُ لِذَهْمَانَ: «وَمَا هُوَ الْأُخْدُودُ؟» فَقَالَ لِي: «بَيْنَ
هَذِهِ النَّتُوءَاتِ (رُءُوسِ الْأَخَادِيدِ) — الْبَادِيَةِ أَمَامَكَ — تَرَيْنِ الْأَخَادِيدَ، وَهِيَ مِنْ عَمَلِ
الْمِحْرَاةِ.»

فَقُلْتُ لَهُ: «وَكَيْفَ يَعْمَلُهَا الْمِحْرَاةُ؟» فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا الْمِحْرَاةَ الَّذِي نَجَرُهُ، فِي أَسْفَلِهِ
مُدِيَّةٌ (سَكِينَةٌ) صُلْبَةٌ كَبِيرَةٌ الْحَجْمِ، فَهِيَ تَشُقُّ الثَّرَى (الْأَرْضَ)، وَتَقْلِبُ تَرَابَ الْحَقْلِ رَأْسًا
عَلَى عَقِبٍ (تَجْعَلُ أَعْلَاهُ أَسْفَلَةً)، كُلَّمَا مَرَّ بِهَا الْمِحْرَاةُ الَّذِي نَجَرُهُ.»

فَقُلْتُ لَهُ: «لَعَلَّهُمْ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ أَنْ يُذْهِبُوا مَا بَقِيَ مِنَ الْحَشَائِشِ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ
إِلَى جَوْفِهَا.» فَقَالَ: «نَعَمْ.» قُلْتُ: «وَأَيُّ فَائِدَةٍ لَهُمْ مِنْ هَذَا؟» فَقَالَ: «لِأَنَّ الْأَرْضَ لَا تَصْلُحُ
لِلزَّرْعِ إِلَّا إِذَا قُلِبَ عَالِيهَا إِلَى أَسْفَلٍ. وَمَتَى تَمَّ لَنَا ذَلِكَ فَإِنَّا — حِينَئِذٍ — نَجْرُ آلَةَ أُخْرَى
تُسَمَّى الْمِسْلَفَةَ وَهِيَ الَّتِي تُسَلِّفُ بِهَا أَرْضَ الْحَقْلِ (تُسَوِّي) لِتُعْطِيَ مَا يَبْدُرُهُ فِيهَا الزَّارِعُ

الفصل الثاني

مَنْ الْحُبُوبِ». فَقُلْتُ لَهُ: «وَمَاذَا يُجِدِيهِمْ (مَاذَا يُفِيدُهُمْ) هَذَا الْعِنَاءُ (التَّعَبُ)؟» فَقَالَ: «لَا سَبِيلَ إِلَى الرَّاحَةِ بِغَيْرِ التَّعَبِ، وَمَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوَالَ لَمْ يَنْلِ الرَّغَائِبَ. وَلَا سَبِيلَ لِنَهْيَةِ الْأَرْضِ لِلزَّرَاعَةِ إِلَّا بَعْدَ حَرْثِهَا وَتَسْلِيفِهَا (تَسْوِيَتِهَا) وَسَقِيَّهَا، وَمَا إِلَى ذَلِكَ. يَظْهَرُ لِي أَنَّكَ لَا تَعْرِفِينَ — يَا قَسَامَةَ — مِنَ الْمَعْلُومَاتِ الْأُولِيَّةِ، وَبَسَائِطِ الْمَعَارِفِ الضَّرُورِيَّةِ مَا يُنَاسِبُ سِنِّكَ؟» فَقُلْتُ لَهُ — فِي اسْتِسْلَامٍ — وَقَدْ أَعْجَبَنِي حُسْنُ فَهْمِهِ، وَصِدْقُ حُكْمِهِ عَلَى الْأُمُورِ: «صَدَقْتَ — يَا دَهْمَانُ — فَإِنِّي عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا أَزَالُ جَاهِلَةً مُتَخَلِّفَةً (مُتَأَخِّرَةً) فَزِدْنِي عِلْمًا أَزِدْكَ لَكَ شُكْرًا.»

فَأَجَابَنِي مُتَلَطِّفًا: «لَيْسَ أَشْهَى إِلَى نَفْسِي مِنْ تَحْقِيقِ مَا تَطْلُبِينَ يَا قَسَامَةَ — وَلَكِنْ لَمْ يَبْقَ لَدَيْنَا مِنَ النَّهَارِ إِلَّا دَقَائِقُ يَسِيرَةٍ، وَمَتَى فَرَعْنَا مِنْ حَرْثِ هَذَا الْأُخْدُودِ رَجَعْنَا إِلَى الدَّارِ.»

(٨) طَائِفَةٌ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ

فَصَرَحْتُ مُعْجَبَةً: «أَهَكَذَا انْتَهَيْنَا سَرِيعًا! أَلَمْ تَقُلْ لِي إِنَّنَا سَنَحْرِثُ أُخْدُودًا آخَرَ؟» فَقَالَ: «لَقَدْ فَرَعْنَا الْآنَ مِنْ حَرْثِهِ — عَلَى طَوْلِهِ — دُونَ أَنْ تَشْعُرِي بِمَا بَدَلْتِهِ مِنْ جُهْدٍ. وَمَرَّ الْوَقْتُ سَرِيعًا فَلَمْ تَفْطِنِي (لَمْ تَنْتَبِهِي) إِلَى انْقِضَاءِ الْيَوْمِ.»

ثُمَّ قَصَّ عَلَيَّ «دَهْمَانُ» طَرَائِفَ مِنَ الْمَعَارِفِ النَّافِعَةِ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ مَا نَطْعُمُهُ مِنَ اللَّذَائِدِ عِنْدَنَا كَالشَّعِيرِ وَالْفُؤُولِ وَالْبُرْسِيمِ إِنَّمَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ.

ثُمَّ قَالَ لِي فِيمَا قَالَ: «وَلَنْ تُنْبِتَ لَنَا الْأَرْضُ هَذِهِ الْمَاكِلَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ نَبْذُلَ جُهِدَنَا فِي حَرْثِهَا وَتَرْحِيفِهَا، وَنَبْذُلَ الزَّارِعُ جُهِدَهُ فِي غَرْسِهَا وَسَقِيَّهَا، لِأَنَّ فِيهَا أَيْضًا أَكْثَرَ غِذَائِهِ وَغِذَاءِ بَنِي جِنْسِهِ. فَإِذَا قَصَرَ أَحَدٌ مِنَّا فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا كُلِّهِ لَمْ نَظْفَرْ بِمَا نَأْكُلُهُ غَيْرَ الْحَشَائِشِ، وَلَمْ يَظْفَرْ هُوَ بِنَبَاتِ الْأَرْضِ.»

ثُمَّ قَالَ لِي وَنَحْنُ عَائِدَانِ إِلَى الْحَظِيرَةِ: «فَإِذَا سَأَلْتَنِي رَأْيِي، فَإِنِّي لَا أَكْتُمُكَ أَنَّنِي أَفْضَلُ — أَلْفَ مَرَّةً — أَنْ أَعْمَلَ وَأَكْدَحَ (أُجَاهِدَ) — طُولَ يَوْمِي — لِأَوْفَرِ زَادِي (أَكْثَرِ قُوَّتِي)، عَلَى أَنْ أَسْتَسْلِمَ لِلْكَسَلِ، وَأُخْلِدَ (أَسْكُنَ) لِلرَّاحَةِ، ثُمَّ أَهْلِكَ جُوعًا.»

(٩) ثَمَرَةُ الْمَعْرِفَةِ

وَلَمَّا بَلَغْنَا الْحَظِيرَةَ لَمْ نَجِدْ فُرْصَةً لِاتِّمَامِ حَدِيثِنَا لَيْلًا، لِأَنَّ مَرْبِطِي لَمْ يَكُنْ قَرِيبًا مِنْ مَرْبِطِ زَمِيلِي. عَلَى أَنَّي — بَعْدَ أَنْ خَلَوْتُشَجَ إِلَى نَفْسِي — أَنْعَمْتُ النَّظَرَ، وَأَطَلْتُ الْفِكَرَ، فِيمَا أَفْضَى بِهِ إِلَيَّ صَاحِبِي مِنْ حَدِيثٍ. وَاعْتَرَزْتُ — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — أَنَّ أَضَاعَفَ مِنْ جُهْدِي فِي سَبِيلِ الْعَمَلِ، غَيْرَ مُتَبَرِّمَةٍ بِمَا أَلْقَاهُ مِنْ عَنَاءٍ وَجُهِدٍ. وَسَوَاءٌ عَلَيَّ أَقْدَرُ لِي الْحَارِثُ مَا أَبْذُلُ مِنْ هِمَّةٍ وَنَشَاطٍ أَمْ لَمْ يَقْدُرْهُ.

وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُجْزَلَ (يُعْظَمَ) مُكَافَأَتِي عَلَى حُسْنِ نِيَّتِي، فَيَسَّرَ لِي — فِي غَدِي (فِي الْيَوْمِ التَّالِي) — حَارِثًا آخَرَ، كَانَ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ سَابِقِهِ، آيَةً فِي الْبَشَاشَةِ وَاللُّطْفِ، فَكَانَ يُلْقِبُنِي بِأَحَبِّ الْأَلْقَابِ إِلَى نَفْسِي. فَسَهَّلَ عَلَيَّ بِذَلِكَ كُلَّ صَعْبٍ، وَيَسَّرَ لِي بُلُطْفَهُ كُلَّ عَسِيرٍ. وَكَانَ صَدِيقِي «دَهْمَانُ» رَاوِيَةً بَارِعًا، وَقَاصًّا مُبْدِعًا فَاتِنَ الْحَدِيثِ. فَقَصَّ عَلَيَّ — حِينَئِذٍ — مِنْ أَنْبَاءِ الدَّوَابِّ كُلِّ مُغْرَبٍ مُعْجَبٍ.

وَمَا أَنْسَ مِنْ بَدَائِعِهِ لَا أَنْسَ مَا رَوَاهُ لِي مِنْ طَرَائِفِ صَاحِبِهِ: «أَبِي تَوَلَّبَ» الَّتِي قَصَّهَا — قَبْلَ مَوْتِهِ — عَلَى صَدِيقِي «دَهْمَانُ» لَقَدْ أَحْبَبْتُ الْحَمِيرَ — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — وَعَرَفْتُ لَهُمْ فَضْلَ مَا تَمَيَّزُوا بِهِ عَلَى دَوَابِّ الْأَرْضِ قَاطِبَةً (جَمِيعًا)، وَمَا انْفَرَدُوا بِهِ مِنْ مَزَايَا بَاهِرَةٍ، وَخِلَالِ (صِفَاتٍ) نَادِرَةٍ.

(١٠) ضَوْءُ الصَّبَاحِ

وَهَكَذَا قَضَيْتُ لَيْلِي مُسْتَرْسَلَةً فِي أُمْتَالِ هَذِهِ الذِّكْرِيَّاتِ، حَتَّى رَأَيْتُ السَّائِسَ هَابِطًا إِلَيْنَا مِنْ غُرْفَتِهِ. وَكَانَ ضَوْءُ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، يَنْفُذُ إِلَى حَظِيرَتِنَا فَيَوْقِظُ النَّيَامَ، فَهَلْ اسْتَيْقِظَ ضَيْفُنَا «أَبُو زِيَادٍ»؟ أَلَا لَيْتَ شِعْرِي: كَيْفَ حَالُكَ يَا ابْنَ عَمٍّ؟ كَيْفَ قَضَيْتَ لَيْلَتَكَ؟ أَتَرَكَ اسْتَرَحْتَ إِلَى أَحْلَامِكَ السَّعِيدَةِ؟ وَأَيُّ الْأَفْكَارِ السَّارَةِ — أَوِ الْحَزِينَةِ — تَطُوفُ بِرَأْسِكَ الْآنَ؟

الفصل الثالث

(١) الطفلة المحسنة

لَقَدْ رَوَيْتُ لَكَ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْعَزِيزُ — طَرَفًا يَسِيرًا مِمَّا مَرَّ بِي فِي حَيَاتِي الْمَاضِيَةِ. وَإِنِّي لَقَاصَّةٌ عَلَيْكَ طَائِفَةً مِنْ أَخْبَارِي الرَّاهِنَةِ لِأَصِلَ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ:

فَاعْلَمْ — أَيُّهَا الصَّبِيُّ الْبَارِعُ النَّشِيطُ — عَلِمْتَ الْخَيْرَ، وَسَلِمْتَ مِنْ كُلِّ ضَرِيرٍ: أَنَّنِي قَدْ أَصْبَحْتُ مُرْتَاحَةً فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ مِنْ كُلِّ عَنَاءٍ. فَلَا يَجْهَدُنِي أَحَدٌ بِعَمَلٍ مُضِنٍ (مُمْرِضٍ) لِأَنَّنِي مَعْنِيَّةٌ بِتَرْبِيَةِ وَلَدِي الصَّغِيرِ: «زَادِ الرَّكْبِ» الَّذِي حَدَّثْتُكَ عَنْهُ. وَقَدْ قَالَتْ عَنْهُ «سُعَادُ» بِنْتُ صَاحِبِ الدَّسْكَرَةِ (بِنْتُ صَاحِبِ الْأَرْضِ الَّتِي نَعْمَلُ فِيهَا): إِنَّهُ يُشْبِهُنِي كَثِيرًا، وَفِي أَسْفَلِ وَجْهِهِ مِثْلُ تِلْكَ الْبُقْعَةِ الْبَيْضَاءِ الَّتِي تَمَيَّزَتْ بِهَا. وَإِنَّ «سُعَادَ» لَا تَخَافُنِي أَبَدًا، وَإِنْ كَانَتْ صَغِيرَةَ الْجِسْمِ جَدًّا، وَأَنَا كَبِيرَةُ الْحَجْمِ جَدًّا. وَهِيَ تَرَانِي أَقْبَلُ عَلَيْهَا كُلَّمَا جَاءَتْ إِلَى الدَّسْكَرَةِ (الْمَزْرَعَةِ). وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ فَإِنَّ يَدَيْهَا لَا تَخْلُوانِ مِنْ حُفْنَةٍ (مَقْدَارِ مِلءٍ كَفَيْهَا) مِنَ الشَّعِيرِ، أَوْ كِسْرَةٍ مِنَ الْخُبْزِ، أَوْ قَلِيلٍ مِنَ الْمِلْحِ، أَوْ حُرْمَةٍ مِنَ الدَّرِيسِ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَلْوَانِ الْأَطْعَمَةِ الَّتِي أَحْبَبُهَا. وَهِيَ تُكْثِرُ مِنَ التَّوَدُّدِ (التَّحَبُّبِ) إِلَيَّ.

(٢) بَيْنَ «قَسَامَةِ» وَ«زَادِ الرَّكْبِ»

هَا هُوَ ذَا «شَفِيقُ» قَادِمًا لِيَنْظِفَنِي، وَيَحْسِنِي (يَنْفُضَ التُّرَابَ عَنِّي) قَبْلَ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْمَرْعَى. إِنَّهُ يَعْلَمُ كَمْ أَبْتَهِجُ حِينَ يَمْشُطُ شَعْرِي كُلَّ صَبَاحٍ، سَوَاءً فِي أَوْقَاتِ الرَّاحَةِ وَالْعَمَلِ. وَإِنَّ مُهْرِي الصَّغِيرَ لَتَمْتَلِئُ نَفْسُهُ مَرَحًا وَسُرُورًا كُلَّمَا خَرَجَ مَعِيَ إِلَى الْمَرْعَى.

لَقَدْ نَمَا سَرِيْعًا فِي زَمَنِ قَصِيْرٍ، وَطَالَتْ أَقْدَامُهُ بِالْقِيَاسِ إِلَى جِسْمِهِ. وَهُوَ فِي جِنِّ نَشَاطِهِ
(عَنْقَوَانِهِ وَقُوَّتِهِ)، فَلَا يَطِيْقُ أَنْ يُحْبَسَ فِي مَرْبِطِهِ دُونَ أَنْ يَجْرِيَ فِي الْمُرْعَى كَمَا يَشَاءُ.
وَقَدْ سَأَلَنِي ذَاتَ يَوْمٍ: «لِمَاذَا لَا يَتْرُكُونَنَا خَارِجَ الْإِصْطَبِلِ — لَيْلَ نَهَارٍ — يَا أُمَاهُ؟»
فَأَجَبْتُهُ: «لِأَنَّ الْبَرْدَ — فِي هَذَا الْفَصْلِ — قَارِسٌ (شَدِيْدٌ). وَمَتَى انْصَرَمَ (انْتَهَى) الْفَصْلُ،
فَإِنَّا نَعِيْشُ خَارِجَ الْحَظِيْرَةِ لَيْلَ نَهَارٍ.»
مَا أَعْجَبَ أَمْرَ هَذَا الطِّفْلِ، وَمَا أَشَدَّ وَلُوعَهُ وَشَغَفَهُ بِالْفَضَاءِ وَالْحَرَكَةِ. لَقَدْ سَمِعَ
صَوْتَ السَّائِسِ — وَهُوَ يَفْتَحُ بَابَ الْحَظِيْرَةِ — فَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ الْمَرْحُ، وَتَمَلَّكَتُهُ الْبَهْجَةُ،
وَزَلَّ يَقْفِزُ وَيَجْرِي مَسْرُورًا، وَيَرْفُسُ أَرْجُلَهُ — بَعْضَهَا بِبَعْضٍ — مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ.

(٣) أَبُو زِيَادٍ

ثُمَّ وَقَفَ فَجَاءَهُ — مِقْدَارَ لَحْظَةٍ — وَنَظَرَ وَرَاءَهُ مَذْهُوشًا. فَالْتَفَتُ فَرَأَيْتُ «شَفِيْقًا» يُخْرُجُ
مِنَ الْإِصْطَبِلِ ذَلِكَ الْحِمَارَ الْمُسَكِّينَ الَّذِي شَغَلْتُ بِأَمْرِهِ طَوْلَ لَيْلَتِي. وَمَا كَادَ وَلَدِي يَرَاهُ
حَتَّى سَأَلَنِي: «مَا اسْمُ هَذِهِ الدَّابَّةِ الْعَجُوزِ؟ وَهَلْ يُصِيبُنَا مِنْهَا ضَرَرٌ؟»
فَقُلْتُ لَهُ مُبْتَسِمَةً: «كَلَّا، أَيُّهَا الْأَبْلَةُ الْعَزِيْزُ. إِنَّهُ ابْنُ عَمِّ لَنَا، وَقَدْ لَقِيَ مِنْ سُوءِ
الْمُعَامَلَةِ شَيْئًا كَثِيْرًا، كَمَا يَبْدُو (كَمَا يَظْهَرُ) مِنْ هُزَالِ جِسْمِهِ وَضَعْفِ قُوَّتِهِ.»

(٤) حَايِرَةُ الضَّيْفِ

ثُمَّ مَشَيْتُ مُتَّجِهَةً إِلَى الضَّيْفِ حَتَّى دَانِيَتْهُ (قَارَبَتْهُ)، فَقُلْتُ لَهُ فِي تَلَطُّفٍ وَتَوَدُّدٍ: «سُعِدَ
صَبَاحُكَ يَا «أَبَا زِيَادٍ»! لَعَلَّ صِحَّتَكَ الْيَوْمَ أَحْسَنُ مِنْهَا أَمْسًا! وَكَأَنَّ هَذَا الْمَخْلُوقَ
التَّاعِسَ لَمْ يَأْلَفْ مِثْلَ هَذَا التَّوَدُّدِ وَتِلْكَ الْمَلَأَاطِفَةِ، فَلَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ يُجِيبُ، وَلَا مَاذَا يَقُولُ.
فَاسْتَأْنَفْتُ قَائِلَةً: «أَخْشَى أَنْ تَكُونَ قَدْ لَقِيتَ مِنَ الْمَتَاعِبِ مَا أَعْجَزَكَ وَنَاءً بِهِ احْتِمَالُكَ (مَا
لَمْ تُطِقْ حَمْلَهُ)! أَلَا تُحِبُّ أَنْ تَنْتَحِي (تَقْصِدَ) بِنَا هَذِهِ النَّاحِيَةَ الْمُشْمِسَةَ، لِنَتَحَدَّثَ مَعًا،
قَلِيْلًا مِنَ الْوَقْتِ.»

فَتَوَقَّفَ لَحَظَاتٍ قَلِيلَةً يُفَكِّرُ، وَقَدْ بَدَتْ (ظَهَرَتْ) الْحَيْرَةُ عَلَى وَجْهِهِ، كَأَنَّمَا كَانَ يَتَرَدَّدُ فِي تَصَدِيقِ مَا سَمِعَ، وَيُرِيدُ أَنْ يَنْتَبِّهَ مَنْ صَدَّقَ مَوَدَّتِي، وَيَسْتَوْثِقَ مِمَّا أَقُولُ. فَأَجَابَنِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ (مُسْتَحْيَاً): «لَكَ مَا تُرِيدِينَ — يَا سَيِّدَتِي — فَمَا أَرَى بَأْسًا فِيمَا تَقْتَرِحِينَ!»

(٥) جَمَالُ الطَّبِيعَةِ

فَقُلْتُ لَهُ: «هَلُمَّ إِلَيَّ (أَقْبِلْ عَلَيَّ)، فَإِنَّ الْجَوَّ صَحُوٌّ (إِنَّ سَمَاءَهُ صَافِيَةً لَا غَيْمَ فِيهَا). وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ مِثْلَ هَذَا الصَّبَاحِ السَّعِيدِ كَفِيلٌ بِأَنْ يُدْخَلَ الْهَنَاءَ وَالْبَهْجَةَ فِي قَلْبِ أَشَدِّ الْكَائِنَاتِ حُزْنًا وَتَعَاسَةً. أَلَا تُصْغِي إِلَى الطُّيُورِ، وَهِيَ فَوْقَ الْأَغْصَانِ، وَفِي أَعْلَى السُّورِ؟ اسْتَمِعْ إِلَى صَوْتِ الْقُنْبَرَةِ فِي السَّمَاءِ. وَانْظُرْ إِلَى الْأَوْرَاقِ الْمُخْضِرَّةِ، وَهِيَ تَرْفَعُ رُءُوسَهَا، لِتُشْرِفَ عَلَى الْعَالَمِ مِنْ أَكْمامِهَا الَّتِي تَفْتَحُ. وَتَأْمَلْ هَذِهِ الْأَزْهَارَ الْبَاسِمَةَ، وَإِلَى جَانِبِهَا الْوُرُودَ وَهِيَ تَفْتَحُ أَعْيُنَهَا مُبْتَهِجَةً لِتَحْيِيَ الشَّمْسَ.»

(٦) سِنَّ الْفِطَامِ

فَلَمْ يُحِرْ (لَمْ يَرُدَّ) جَوَابًا، بَلْ قَفَزَ بِجَوَارِي. وَكُنْتُ وَاقِفَةً فِي زَاوِيَةِ قَصِيَّةٍ (بَعِيدَةٍ) فِي الْحَقْلِ، حَيْثُ الْحَشَائِشُ اللَّذِيذَةُ قَدْ بَلَغَتْ النَّدَى. فَقُلْتُ لَهُ: «الآنَ نَبْدَأُ فَطُورَنَا، ثُمَّ نَرْقُدُ شَيْئًا (بَعْضَ الْوَقْتِ) رَيْنَمَا يَمْتَعُ (يَنْعَمُ) وَلَدِي «زَادُ الرُّكْبِ» بِالْجَرِيِّ فِي هَذَا الْمَرْعَى الْخَصِيبِ! لَقَدْ غَدَوْتُهُ بِلَبَانِي قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ بِهِ مِنَ الْإِصْطَبِلِ.»

فَسَكَتَ «أَبُو زِيَادٍ». وَلَبِثْنَا شَيْئًا (زَمَنًا قَلِيلًا)، نَأْكُلُ فِي صَمْتٍ. وَهَمَمْتُ مَرَّةً أُخْرَى أَنْ أَدْفَعَهُ إِلَى الْكَلَامِ. وَلَكِنَّهُ ابْتَدَرَنِي (أَسْرَعَ إِلَيَّ) قَائِلًا: «كَيْفَ تَرْضَعِينَ هَذَا الْمُهْرَ، وَهُوَ — فِيمَا يَبْدُو لِي — قَدْ جَاوَزَ سِنَّ الرِّضَاعِ؟ كَمْ عُمُرُهُ الْآنَ؟»

فَقُلْتُ لَهُ: «سِتَّةُ أَسابِيعَ فَقَطْ. وَيَظْهَرُ أَنَّهُ اسْتَمَرَّ دَرِّي (اسْتَطَابَ لَبَنِي) الدَّسَمِ (الْكَثِيرِ السَّمَنِ)، فَقَدْ نَمَّاهُ لَبَنِي وَأَسَمَنَهُ. وَلَنْ أَفْطِمَهُ قَبْلَ أَنْ يُيَمَّ الشَّهْرَ الرَّابِعَ مِنْ عُمُرِهِ عَلَى الْأَقْل.»

(٧) الْحَوَافِرُ وَالْأُظْلَافُ

فَقَالَ: «وَلِمَاذَا؟» فَقُلْتُ: «لَا بُدَّ أَنْ أَرْضِعَهُ حَتَّى يَسْتَبْدِلَ بِأَسْنَانِهِ اللَّبْنِيَّةِ أَسْنَانَهُ الْحَقِيقِيَّةَ، الَّتِي يَأْكُلُ بِهَا الطَّعَامَ الصُّلْبَ وَيَمْضُغُهُ. وَلَنْ يَتِمَّ لَهُ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَنْقُضِيَ تِلْكَ الْمُدَّةَ، مَا أَعْجَبَ سُؤَالَكَ، يَا أَبَا زِيَادٍ! لَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُكَ عَارِفًا تَفْصِيلَ هَذَا كُلِّهِ، لِأَنَّكَ تُنْسَبُ إِلَى أُسْرَتِنَا.»

فَقَالَ مُنْعَجِبًا مِمَّا سَمِعَ: «أَكْذَلِكَ تَعْتَقِدِينَ؟ أَنْتِ فَرَسٌ! أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟» فَقُلْتُ لَهُ: «صَدَقْتُ. وَأَنْتِ مَنْ تَكُونُ؟ إِنَّ الْفَرَسَ وَالْجِمَارَ يَنْتَسِبَانِ إِلَى أُسْرَةٍ وَاحِدَةٍ. وَحَسْبُكَ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ مَا حَدَّثْتُكَ بِهِ: أَنَّنَا جَمِيعًا مِنْ ذَوَاتِ الْحَافِرِ (الظُّلْفِ غَيْرِ الْمَشْقُوقِ). أَلَا تَرَى أَقْدَامَنَا لَيْسَ فِيهَا أَصَابِعُ. وَلَا كَذَلِكَ صَوَاحِبُنَا ذَوَاتِ الْأُظْلَافِ، أَغْنِي: ذَوَاتِ الْحَوَافِرِ الْمَشْقُوقَةِ: كَالنُّعْجَةِ وَالْبَقَرَةِ وَالْغَزَالِ وَالْمِعْزَى وَالْغَنَمِ وَالْجَامُوسِ.



إِنَّ الْحَافِرَ لِأَبْنَاءِ أُسْرَتِنَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ الظُّلْفِ الَّذِي تَمَازُ بِهِ أُسْرَةُ الْبَقَرَةِ وَالشَّاةِ وَالظَّبْيِ وَشَبْهَهَا. وَالْحَافِرُ وَالظُّلْفُ كِلَاهُمَا لِلدَّابَّةِ بِمَنْزِلَةِ الْقَدَمِ لِلْإِنْسَانِ. وَهَذِهِ الدَّوَابُّ تَشْرِكُنَا فِي أَكْلِ الْحَشَائِشِ وَتَخْتَلِفُ عَنَّا بِفِرَوْتِهَا.

أَمَّا ذَوَاتُ الْأَخْفَافِ كَالْجَمَلِ وَالنَّعَامِ، فَإِنَّ حَوَافِرَنَا تَمْتَارُ عَنْ أَخْفَافِهَا بِالصَّلَابَةِ، كَمَا تَمْتَارُ ذَوَاتُ الْأَطْلَافِ بِفَرَوْتِهَا عَنَّا وَعَنْ غَيْرِنَا مِنْ ذَوَاتِ الْأَخْفَافِ.
فَكَيْفَ جَهَلَتْ هَذِهِ الْبَسَائِطُ (الْمَعْلُومَاتِ الْأُولِيَّةِ)، وَلِمَاذَا نَسِيَتْهَا — يَا أَبَا زِيَادٍ — وَهِيَ لَا تَكَادُ تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ؟»

(٨) أَسْنَانُ الدَّوَابِّ

وَمَا كَانَ أَجْدَرَكَ أَنْ تَعْرِفَ شَيْئًا عَنْ أَسْنَانِنَا — مَعْشَرَ الْخَيْلِ — فَإِنَّهَا تَتَبَدَّلُ فِي نَفْسِ الْأَوْقَاتِ الَّتِي تَتَبَدَّلُ فِيهَا أَسْنَانُكُمْ، فِي زَمَنِ طُفُولَتِنَا وَطُفُولَتِكُمْ عَلَى السَّوَاءِ.
فَقَالَ «أَبُو زِيَادٍ»، وَقَدْ تَمَلَّكُهُ الْعَجَبُ (اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ): «أَكْذَلِكْ نَحْنُ وَأَنْتُمْ؟ مَا كُنْتُ لِأَعْلَمَ هَذَا مِنْ قَبْلُ. وَغَايَةُ مَا عَرَفْتُهُ: أَنَّهُ كَانَ لِي أَرْبَعُ أَسْنَانٍ حِينَ كَانَتْ سِنِّي خَمْسَةَ أَيَّامٍ، ذَلِكَ مَا حَدَّثْتَنِي بِهِ أُمِّي، وَلَوْلَاهَا مَا عَرَفْتُهُ.»

فَقُلْتُ لَهُ: «ذَلِكَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ: كَانَتْ لَكَ أَرْبَعُ أَسْنَانٍ — حِينَئِذٍ — كَمَا كَانَتْ لَنَا جَمِيعًا. وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا أَنْيَابًا أَعْنِي: أَسْنَانًا مُدْبِبَةً، لَا تُفِيدُ شَيْئًا، وَلَا تَصْلُحُ لِمَضْغِ الطَّعَامِ. وَمَتَى تَمَّ نَمَاؤُنَا أَصْبَحَ لِكُلِّ مَنَا سِتَّةُ أَضْرَاسٍ فِي آخِرِ فِكْنِنَا. وَهِيَ نَافِعَةٌ لِلْقَضْمِ (لِتَكْسِيرِ الطَّعَامِ الْيَابِسِ بِأَطْرَافِهَا)، كَمَا أَنَّهَا نَافِعَةٌ لِلتَّقْطِيعِ، وَلَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَأْكُلَ طَعَامَنَا، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَنَا تِلْكَ الْأَضْرَاسُ الْقَوَاطِعُ الَّتِي تَرَاهَا فِي آخِرِ الْحَنَكِ، وَبِغَيْرِهَا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَطْحَنَ الطَّعَامَ.»

(٩) حِوَارُ الصَّدِيقَيْنِ

فَقَالَ «أَبُو زِيَادٍ» وَهُوَ يَقْضُمُ الْحَشَائِشَ (يَكْسِرُهَا بِأَطْرَافِ أَسْنَانِهِ): «هَذَا حَقٌّ لَا رَيْبَ (لَا شَكَّ) فِيهِ! لَقَدْ مَرَّ بِي ذَلِكَ الْعَهْدُ. وَيُظْهِرُ لِي أَنَّكَ تَعْلَمِينَ كَثِيرًا مِنَ الْحَقَائِقِ الْمُمْتَعَةِ. فَخَبِّرْنِي — يَا ابْنَةَ عَمٍّ — مَتَى جِئْتِ إِلَى هَذِهِ الصُّيْعَةِ؟»
فَأَجَبْتُهُ وَقَدْ دَهَشْتُ مِنْ سَدَاجَتِهِ: «لَقَدْ وُلِدْتُ فِيهَا. فَخَبِّرْنِي — يَا ابْنَ عَمٍّ — مِنْ أَيِّ مَكَانٍ حَضَرْتُ؟»

فَأَجَابَنِي، وَهُوَ يَحْكُ ظَهْرَهُ فِي أَحَدِ الْعَمَدِ الْمُثْبِتِ بِهَا سُورَ الْمَرْعَى: «ذَلِكَ مَا لَمْ أَتَنَبَّتْ مِنْهُ. لَقَدْ مَرَرْتُ بِمَوَاطِنَ وَبُلْدَانٍ كَثِيرَةٍ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ — عَلَى التَّحْقِيقِ — أَنْ أَذْكَرَ: فِي أَيِّ مَوْطِنٍ وُلِدْتُ!

وَلَسْتُ أَذْرِي مِنَ الْمَعَارِفِ مَا تَذَرِينَ، وَلَا أَعْلَمُ مِنَ الْحَقَائِقِ مِقْدَارَ مَا تَعْلَمِينَ. وَلَكِنِّي — عَلَى ذَلِكَ — أَعْرِفُ أَشْيَاءَ أُخَرٍ، مَا أَظُنُّكَ تَعْرِفِينَهَا؟ فَقَدْ رَأَيْتُ — لِتَعَاسَتِي — كَثِيرًا مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ؛ وَأَذْرَكْتُ — لِشَقَاوَتِي — كَثِيرًا مِنْ حَقَائِقِ الْحَيَاةِ، وَدِدْتُ لَوْ جَهَلْتُهَا أَوْ نَسَيْتُهَا.

(١٠) أَبُو تَوَلَبٍ

إِنَّ النَّاسَ يَصِفُونَنِي بِالْغَبَاوَةِ، وَلَعَلَّنِي كَمَا يَصِفُونَ. وَلَكِنَّنِي لَا أَحْسِبُنِي قَدْ وُلِدْتُ أَبْلَهُ أَوْ غَبِيًّا. فَكَيْفَ تَحْكُمِينَ يَا ابْنَةَ عَمٍّ؟»

فَقُلْتُ لَهُ: «كَلَّا، بَلْ ظَلَمُوكَ يَا «أَبَا زِيَادٍ»، فَمَا أَنْتَ عَلَى التَّحْقِيقِ بِأَبْلَهُ وَلَا غَبِيٍّ. وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ جَنْسَكَ مَعْرُوفٌ — بَيْنَنَا — بِالذِّكَاةِ وَالصَّرِ عَلَى احْتِمَالِ الشَّدَائِدِ، مَوْصُوفٌ — عِنْدَنَا — بِدِمَائَةِ الْخُلُقِ (لِإِنِ الطَّبَعِ) وَنَقَاءِ السَّرِيرَةِ (صَفَاءِ السَّرِّ الَّذِي يُضْمِرُهُ فِي نَفْسِهِ). وَقَدْ حَدَّثَنِي أَحَدُ أَصْدِقَائِي الْقَدَمَاءِ، وَاسْمُهُ: «دَهْمَانُ» بِذِكْرِيَّاتٍ مُعْجَبَةٍ قَصَّهَا عَلَيْهِ أَحَدُ أَبْنَاءِ أَعْمَامِنَا الْمُتَوَفَّيْنَ (الْمَيِّتِينَ) مِنَ الْحَمِيرِ، يُكْنَى: «أَبَا تَوَلَبٍ». وَمَا أَشْكُ فِي أَنَّكَ لَوْ سَمِعْتَ قِصَّتَهُ وَخَوَاطِرَهُ، لَأَيَّقَنْتَ أَنَّ هَذَا الْحِمَارَ، كَانَ أَذْكَى دَابَّةً عَرَفْتُ فِي تَارِيخِنَا — مَعَشَرَ الدَّوَابِّ — الْحَافِلِ بِالْغَرَائِبِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا. وَمَا أَحْسَبُ أَنَّ حِمَارًا، كَانِنَا مَا كَانَ، قَدْ لَقِيَ — مِنْ مَصَائِبِ الدُّنْيَا وَأَحْدَاثِهَا — مِثْلَ مَا لَقِيَ هَذَا الْحَيَوَانُ الْعَالِمُ الشَّقِيُّ.»

(١١) أُمُّ شَحَاجٍ

وَلَا أَكْتُمُكَ أَنَّني طَالَمَا أَبْصَرْتُ سَائِسَنَا «شَفِيقًا» يُعْجَبُ بِأُمِّ شَحَاجٍ اللَّتِي فِي ضَيْعَتِنَا، وَطَالَمَا قَالَ عَنْهَا: «إِنَّهَا أَذْكَى دَابَّةٍ رَأَاهَا، وَأَفْطَنُ حَيَوَانٍ عَرَفَهُ. وَهُوَ يُؤَثِّرُ رُكُوبَ هَذِهِ الْأَتَانِ (الْحِمَارَةِ) — لِدَوَاعِيهَا وَطَوَاعِيَّتِهَا — وَيُفْضِلُهَا عَلَى دَوَابِّ الدَّسْكَرَةِ كُلِّهَا. وَهِيَ فِي ضَيْعَتِنَا مُوفُورَةُ الرَّاحَةِ، فَلَا تَرَى أَحَدًا يُرْهِقُهَا (يُجْهِدُهَا) بِالْأَتْقَالِ. وَلَيْسَ لَهَا مِنْ

عَمَلٍ يَشْغُلُهَا إِلَّا مَرْكَبَةً صَغِيرَةً تَجْرُهَا، يَسْتَقِلُّهَا (يَرْكَبُهَا) أَطْفَالُ صَاحِبِ الضَّيْعَةِ حِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ، وَحِينَ يَعُودُونَ.»

(١٢) شَكْوَى أَبِي زِيَادٍ

فَقَالَ «أَبُو زِيَادٍ» مُتَرَوِّيًا (مُتَأَنِّيًا مُفَكِّرًا): «إِنَّ حَظَّهَا أَسْعَدَ مِنْ حَظِّي. أَلَا شَدَّ مَا اخْتَلَفَ الْقِسْمُ (مَا أَبْعَدَ نَصِيبَ هَذَا مِنْ ذَلِكَ). وَمَا أَغْرَبَ تَوَزِيعَ الْحُطُوطِ: حِينَ تُغْرَقُ بِالسَّعَادَةِ قَوْمًا، وَبِالْشَّقَاءِ آخَرِينَ! أَمَا لَوْ عَلِمْتُ مَا تَعَرَّضْتُ لَهُ مِنْ كَوَارِثَ (مَصَائِبَ) وَأَحْدَاثٍ (أَحْوَالٍ وَشُنُونٍ)، لَعَجِبْتُ مِنْ طُولِ تَجَلُّدِي وَاحْتِمَالِي وَصَبْرِي عَلَى الْمَكَارِهِ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْكَ الدَّهْشُ مِمَّا كَابَدْتُهُ (قَاسَيْتُهُ) مِنَ الْأَهْوَالِ وَالْفَوَاجِعِ!»

فَقُلْتُ لَهُ: «مُسْكِينُ أَنْتَ يَا «أَبَا زِيَادٍ» الْعَزِيزُ! ارْقُدْ هُنَا، وَقُصِّ عَلَيَّ حَدِيثَكَ الْعَجِيبَ، دُونَ أَنْ تَنْقُصَ مِنْهُ شَيْئًا. فَلَعَلَّكَ تَشْعُرُ بِبَعْضِ الرَّاحَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ، حِينَ تُفْضِي إِلَيَّ (تُخْبِرُنِي) بِذِكْرِيَاكَ وَخَوَاطِرِكَ الْحَزِينَةِ.»

فَقَالَ «أَبُو زِيَادٍ»: «لَقَدْ شَوَّقْتَنِي — يَا أُمَّ «سَوَادَةَ» — إِلَى حَدِيثِ «أَبِي تَوْلَبٍ»: ذَلِكَ الْحِمَارُ الْعَالِمُ الذَّكِي. فَخَبَّرَنِي بِمَا قَصَّهُ عَلَيْكَ صَاحِبُكَ: «دَهْمَانُ» مِنْ أَخْبَارِهِ، وَإِنِّي مُحَدِّثُكَ بِأَمْرِي، فِيمَا بَعْدُ.»

فَقُلْتُ لَهُ، وَقَدْ اشْتَدَّ شَغْفِي لِسَمَاعِ قِصَّتِهِ: «إِنِّي قَاصَّةٌ عَلَيْكَ مَا تُرِيدُ مِنْ أَنْبَاءِ الْمُعْجَبَةِ، بَعْدَ أَنْ تُفْضِيَ إِلَيَّ بِدَخْلِكَ (تُخْبِرُنِي بِمَا تُخْفِيهِ فِي قَرَارَةِ نَفْسِكَ)؛ فَإِنِّي — لِسَمَاعِ قِصَّتِكَ — لَعَلَى شَوْقٍ شَدِيدٍ.»

الفصل الرابع

قصة أبي زياد

(١) ثلاثون عامًا

لَمْ يَكُنْ «أَبُو زِيَادٍ» يَسْتَسْلِمُ لِلرَّاحَةِ — فَوْقَ الْحَشَائِشِ الْقَرِيبَةِ مِنْ سِيَاحِ الْحَقْلِ (سُورِهِ) — حَتَّى التَّفَتَ إِلَيَّ، وَنَظَرَ فِي وَجْهِهِ نَظَرَاتٍ فَاجِصَةً ذَاتَ مَعَانٍ لَا تَخْفَى عَلَى مَنْ يَرَاهَا. وَهِيَ تَدُلُّ عَلَى عَقْلِ ذَكِي وَتَفَكُّيرٍ بَارِعٍ. قَالَ «أَبُو زِيَادٍ»: «لَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَصِفَ كُلَّ أَشْجَانِي، وَأُعَبِّرَ عَنْ جَمِيعِ أَحْزَانِي، لِأَنَّ الْكَلِمَاتِ لَا تَفِي بِإِظْهَارِ مَكْنُونِ شُعُورِي. وَلَوْ طَاوَعَنِي التَّعْبِيرُ عَمَّا أُرِيدُ، لَمْ يُطَاوِعْنِي ضَعْفِي وَاخْتِلَالُ صِحَّتِي الَّتِي أَصْبَحْتُ تَتَأَذَّى كُلَّمَا عَرَضَتْ لَهَا تِلْكَ الذِّكْرِيَّاتُ الطَّوِيلَةُ الْمُؤَلِّمَةُ. وَلَا أَكْتُمُكَ أَنَّ حَيَاتِي لَمْ تَكُنْ إِلَّا سِلْسِلَةً مُتَّصِلَةً الْحَلَقَاتِ مِنَ الْأَلَامِ وَالْمَصَائِبِ. فَقَدْ عَشْتُ دَهْرًا طَوِيلًا، وَقَضَيْتُ عُمْرًا مَدِيدًا لَمْ يَكُنْ يَبْلُغُهُ حِمَارٌ آخَرُ. وَمَا أَظُنُّكَ سَمِعْتَ أَنَّ حِمَارًا بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ ثَلَاثِينَ عَامًا، كَمَا بَلَغْتُ.» فَتَجَدَّدَتْ دَهْشَتِي، وَزَادَ عَجَبِي مِمَّا سَمِعْتُ. وَتَفَرَّسْتُ (دَقَّقْتُ النَّظَرَ) فِي مَلَامِحِهِ، وَقَدْ اشْتَدَّتْ رَغْبَتِي فِي سَمَاعِ قِصَّتِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: «الْحَقُّ يَا صَاحِبِي أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ قَطُّ، أَنَّ مِنَ الْحَمِيرِ مَا يَعِيشُ مِثْلَ هَذَا الْعُمُرِ الطَّوِيلِ. لَا تَعْجَبْ يَا ابْنَ عَمٍّ. أَلَيْسَ عُمْرُكَ الْآنَ أَرْبَعَةَ أَمْثَالِ عُمْرِي تَقْرِيْبًا؟»

فَتَعَجَّبَ «أَبُو زِيَادٍ»، وَهَزَّ رَأْسَهُ الْأَشْعَثَ (الْمُفَرَّقَ) الشَّعْرَ، قَائِلًا: «أَحَقُّ مَا تَقُولِينَ؟ أَمْ لَّا تَكُونِي قَدْ كَابَدْتِ (عَانَيْتِ) مِنَ الْمَتَاعِبِ مِثْلَ مَا كَابَدْتُ. إِنِّي أَدْعِي: «أَبَا زِيَادٍ» أَوْ عَلَى الْأَصَحِّ، كَانَ ذَلِكَ مَا أُطْلِقَ عَلَيَّ مُنْذُ سَنَوَاتٍ كَثِيرَةٍ سَلَفْتُ (مَضْتُ). وَإِنْ كَانَ يَلُوحُ (يَبْدُو) لِذَاكَرَتِي الضَّعِيفَةِ أَنَّ ثَمَّةَ (هُنَاكَ) أَسْمَاءَ أُخْرَى أُطْلِقْتُ عَلَيَّ فِي أَثْنَاءِ طُفُولَتِي، وَلَكِنِّي لَا أَكَادُ أَذْكُرُهَا الْآنَ.»

(٢) أَيَّامُ السَّعَادَةِ

لَقَدْ وُلِدْتُ فِي بَلَدٍ نَاءٍ (بَعِيدٍ) عَنْ هَذَا الْبَلَدِ. وَحِينَ كُنْتُ طِفْلًا صَغِيرًا، انْتَقَلْتُ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ نَاءٍ بَعِيدٍ. وَقَدْ عَبَرْتُ بَحْرًا وَاسِعًا جِدًّا فَوْقَ مَرْكَبٍ تِجَارِيٍّ كَبِيرٍ، ظَلَلْتُ فِيهِ أَيَّامًا كَثِيرَةً حَتَّى بَلَغْتُ ذَلِكَ الْبَلَدِ. وَكُنْتُ — حِينئِذٍ — فِي صُحْبَةِ أُمِّي وَجُمْهُورِ أَهْلِي، وَظَلَلْتُ رَدْحًا (مُدَّةً) مِنَ الزَّمَنِ أَعَامِلُ مُعَامَلَةً حَسَنَةً.

وَكَانَ هَؤُلَاءِ ذَلِكَ الْبَلَدِ يَجْمَعُ بَيْنَ الدَّفْءِ وَالْجَفَافِ. فَشَعَرْتُ بِأَنَّهُ يُوَافِقُنِي أَتَمَّ مُوَافَقَةٍ. وَسُرْعَانَ مَا صَحَّ جِسْمِي وَنَمَا.

وَكَنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَمْتَدِّحُونَ جَمَالَ مَنْظَرِي وَانْسِجَامَ جِسْمِي (انْتِظَامَهُ وَاسْتِوَاءَهُ)، وَيَقُولُونَ مُعْجَبِينَ: «يَا لَهُ مِنْ جَمَارٍ!»

وَهُنَا أَطْرَقَ «أَبُو زِيَادٍ» دَقِيقَةً أَوْ دَقِيقَتَيْنِ، كَأَنَّمَا غَرِقَ فِي ذِكْرِيَّاتِ تِلْكَ الْأَيَّامِ الْغَابِرَةِ (الْقَدِيمَةِ الْمَاضِيَةِ).

وَكَنْتُ — حِينئِذٍ — أَخْتَلِسُ (أَخْتِطِفُ بِسُرْعَةٍ عَلَى غَفْلَةٍ) بَعْضَ النَّظَرَاتِ السَّرِيعَةِ إِلَى جِسْمِهِ النَّحِيفِ، وَشَعْرِهِ الْأَشْعَثِ (الْمُفَرَّقِ)، وَأَنَا أَقُولُ لِنَفْسِي مُتَعَجِّبَةً: «تَرَى أَيْنَ ذَهَبَ جَمَالُهُ الَّذِي يَتَحَدَّثُ عَنْهُ، فَإِنِّي لَا أَرَى لَهُ أَيَّ أَثَرٍ عَلَى التَّحْقِيقِ؟»

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ «أَبُو زِيَادٍ» قَائِلًا: «مَا أَجْدَرَنِي أَنْ أَمُرَّ بِتِلْكَ الْأَيَّامِ مَرًّا سَرِيعًا، فَقَدْ كَانَتْ مُنْذُ عَهْدٍ بَعِيدٍ جِدًّا، وَقَدْ كِدْتُ أَنْسَاهَا، وَقَلَّمَا ذَكَرْتُهَا.

قُلْتُ لَكَ: إِنِّي نَمُوتُ (ازْدَادَ حَجْمُ جِسْمِي) بِسُرْعَةٍ عَظِيمَةٍ، وَأَصْبَحْتُ وَاحِدًا مِنْ أَطْوَلِ أَبْنَاءِ أُسْرَتِي وَأَقْوَاهَا. وَكَانَ صَاحِبِي رَجُلًا رَجِيمًا، فَأَحْسَنَ تَغْذِيَّتِي، كَمَا أَحْسَنَ مُعَامَلَتِي. وَلَقِيتُ مِنْ تَقْدِيرِهِ وَعَطْفِهِ مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ. فَكَانَ يَمْشِطُ شَعْرِي (يُسْرِحُهُ

وَيُخْلَصُ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ) حَتَّى أَصْبَحَ — لِفَرْطِ نَظَافَتِهِ — لَامِعًا، كَمَا يَلْمَعُ شَعْرُكَ الْجَمِيلُ!

فَلَا تَعْجَبِي إِذَا قُلْتُ لَكَ: إِنَّنِي — جِينِدٌ — شَمَخْتُ بِرَأْسِي مَزْهُوًّا مُعْجَبًا بِهَذَا الثَّنَاءِ الَّذِي سَمِعْتُ، وَأَيَقَنْتُ أَنَّنِي أَصْبَحْتُ أَظْرَفَ حِمَارٍ فِي الدُّنْيَا كُلِّهَا، وَأَنَّنِي جَدِيرٌ بِالِانْتِسَابِ إِلَى أَبِيْنَا الْعَظِيمِ: شَحَاجِ الْأَكْبَرِ.»

(٣) حُزْنُ الْأُمِّ

فَقُلْتُ لَهُ: «ذَلِكَ مَعْقُولٌ، فَاتِمِّمْ حَدِيثَكَ.» فَقَالَ، وَقَدْ سِيءَ وَجْهُهُ (قَبِحَ) وَعَلَا الْاِكْتِنَابُ سِحْنَتَهُ، فَنَظَرَ إِلَيَّ بِوَجْهِ مُتَجَهِّمٍ (عَابِسٍ مُتَغَيِّرٍ): «أَرْجُو أَلَّا تَقَاطِعِينِي، كَمَا أَرْجُو أَلَّا تَتَعَجَّلِينِي، لِأَنِّي أَعْرِفُ مَا يَقَالُ وَمَا لَا يَقَالُ.

دَعِينِي أَقْصُ عَلَيْكَ حَدِيثِي — كَمَا يَحْلُو لِي بِأَسْلُوبِي الْخَاصِّ — وَإِلَّا كَفَفْتُ (سَكَتُ) عَنِ الْكَلَامِ بَتَانًا.»

فَقُلْتُ لَهُ: «الْحَقُّ مَا تَقُولُ، فَلَنْ أَقَاطِعَكَ مَرَّةً أُخْرَى!»

فَقَالَ: «لَمَّا أَوْفَتُ (أَشْرَفْتُ) سِنِي عَلَى الثَّانِيَةِ، بَاعَنِي صَاحِبِي. وَقَدْ اِمْتَلَأَ قَلْبُ أُمِّي حُزْنًا وَرُغْبًا لِفِرَاقِي، وَقَالَتْ: «مَا أَتَعَسَ حَظِّي، فَإِنَّنِي مَنكُوبَةٌ هَكَذَا دَائِمًا. أَوَكَلَّمَا نَمَّا (كَبِرَ) طِفْلٌ مِنْ أَطْفَالِي، أَخَذَهُ مِنِّي صَاحِبِي قَسْرًا (كَرْهًا وَاغْتِصَابًا)، وَأَبْعَدَهُ عَنِّي، فَلَا أَكَادُ أَظْفَرُ مِنْ أَوْلَادِي إِلَّا بِصُحْبَةِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَقَطُّ؟»

(٤) الصَّاحِبُ الْجَدِيدُ

ثُمَّ أَخَذَنِي صَاحِبِي الْجَدِيدُ، إِلَى مُرْتَفَعَاتِ مِنَ التُّلُولِ وَالْهَضَابِ الْعَالِيَةِ وَمُنْخَفِضَاتِ مِنَ السُّهُولِ — وَالْأَوْدِيَةِ وَالْوَهَادِ (وَهْيَ: الْأَرَاضِي الْمُنْخَفِضَةُ) حَيْثُ رَأَيْتُ أَقْدَامِي لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْتَبَّتَ فِي الْأَرْضِ. وَمَا أَظُنُّ أَنَّ فِي قُدْرَتِكَ أَنْ تَمْشِيَ فِي تِلْكَ الْمَسَالِكِ الْخَطِرَةِ الَّتِي كُنْتُ ارْتَادُهَا (أَسِيرُ فِيهَا) جَيِّئَةً وَذَهَابًا.»

فَقَالَتْ «قَسَامَةٌ»: «ذَلِكَ مَا لَمْ أَحَاوِلْهُ قَطُّ، وَلَنْ أَسْتَطِيعَ إِذَنْ أَنْ أَعْرِفَ: أِنِّي مَقْدُورِي هَذَا أَمْ فِي غَيْرِ مَقْدُورِي؟ وَلَكِنْ لَا رَيْبَ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ، فَإِنَّنِي ثَقِيلَةُ الْجِسْمِ، وَأَرْجُلِي لَيْسَتْ

رَشِيقَةً (لَيْسَتْ خَفِيفَةً الْحَرَكَةِ) كَأَرْجُلِكَ. فَهِيَ لِذَلِكَ لَا تَصْلُحُ لِلسَّيْرِ فِي الْأَمَاكِنِ الْوَعْرَةِ (الصَّعْبَةِ).»

فَاسْتَأْنَفَ «أَبُو زِيَادٍ» قَائِلًا: «ذَلِكَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ. فَلَيْسَ فِي مَقْدُورٍ أَحَدٍ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى شَيْءٍ قَبْلَ أَنْ يُمَارِسَهُ (يُعَالَجَهُ) وَيَجْرِبَهُ وَيَتَعَرَّفَ مَدَى (مَقْدَارَ) قُدْرَتِهِ — أَوْ عَجْزِهِ — عَنْ مُزَاوَلَتِهِ (عَمَلِهِ وَالْقِيَامِ بِهِ).»

(٥) فِي أَعَالِي التَّلَالِ

لَقَدْ كُنْتُ — أَنَا نَفْسِي — أَحْسَبُنِي عَاجِزًا عَنْ صُعُودِ التَّلَالِ وَسَلَالِمِ الْجِبَالِ، حِينَ رَأَيْتُهَا أَوَّلَ وَهْلَةٍ (أَوَّلَ شَيْءٍ رَأَيْتُهُ) فَقَدْ خِيلَ إِلَيَّ — حِينَ لَمْ أَرْ فِيهَا إِلَّا مَنَافِذَ لِلْسَّيْرِ مُنْحَدِرَةً مُلْتَوِيَةً — أَنَّي غَيْرُ مُسْتَطِيعِ الصُّعُودِ إِلَيْهَا. وَشَعَرْتُ — حِينَ هَمَمْتُ بِارْتِقَائِهَا (الصُّعُودِ فِيهَا) — أَنَّي لَنْ أَلْبَثُ أَنْ أَقَعَ عَلَى ظَهْرِي.

وَلَكِنِّي — حِينَ دَفَعْتُ رَأْسِي وَدِرَاعِي إِلَى الْأَمَامِ قُدَمًا (بِلَا التَّوَأَى)، وَتَبَّتْ أَقْدَامِي فِي الصَّخْرِ تَتَبِيتًا — تَمَكَّنْتُ مِنَ السَّيْرِ نَاجِيًا (خَالِصًا مِنَ الْأَنْي). وَكُتِبَتْ لِي السَّلَامَةُ بَعْدَ ذَلِكَ.»

(٦) بِدَايَةِ الشَّقَاءِ

فَقُلْتُ لَهُ، وَأَنَا أُرْثِي لِحَالِهِ (أَرِقُّ وَأَعْطِفُ): «لَعَلَّكَ ابْتَهَجْتَ حِينَ بَلَغْتَ غَايَتَكَ، وَوَصَلْتَ إِلَى الْقِمَّةِ (بَلَغْتَ رَأْسَ الْجَبَلِ).»

فَقَالَ: «لَقَدْ خِيلَ إِلَيَّ أَنَّ الْأَمِي قَدْ انْتَهَتْ. وَلَكِنْ، وَاسْفَاهُ، فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ بِدَايَةَ الْأَلَامِ لَا نَهَايَتِهَا. وَطَبِيعِي أَنَّي لَمْ أَعْرِفْ هَذِهِ الْحَقَائِقَ — حِينَئِذٍ — وَلَكِنِّي رَأَيْتُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْجِبَالِ جَمَاعَةً مِنَ الْمُعْدِنِيِّينَ (الْمُشْتَغِلِينَ بِاسْتِخْرَاجِ الْمُعْدِنِ) يَعْمَلُونَ فِي مَنَاجِمٍ (وَالْمَنَاجِمُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي تُسْتَخْرَجُ مِنْهُ الْمَعَادِنُ). وَرَأَيْتُ الْقِطْعَ الَّذِي تَخْرُجُ مِنَ الْمَنَاجِمِ تَحْمَلُ عَلَى ظُهُورِ أَفْرَادٍ مِنْ أُسْرَتِي الْجِمَارِيَّةِ، إِلَى السُّهُولِ الْمُتَبَسِّطَةِ الْوَاطِئَةِ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ. وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الْعَمَلُ سَهْلًا — إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ — عَلَى أَبْنَاءِ عَشِيرَتِي مِنَ الْحَمِيرِ الْمُدْرِبِينَ الَّذِينَ أَكْسَبَهُمُ الْعَمَلُ مَرَانَةً (تَمَرِينًا) وَخَبْرَةً.

أَمَا أَنَا فَمَا كِدْتُ أَلْبُغُ حَافَةَ الْمُنْحَدِرِ (جَانِبُهُ وَطَرَفُهُ) — وَعَلَى ظَهْرِي أَوَّلُ جِمْلٍ —
حَتَّى رَجَعْتُ أَدْرَاجِي مُرْتَاعًا (عُدْتُ — مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُ — خَائِفًا) مُفَرَّعًا.

(٧) ضَرْبَةُ الْعَصَا

وَالآنَ صَوَّرِي لِنَفْسِكَ — يَا «أُمَّ سَوَادَةَ» — أَنَّنِي كُنْتُ أَبْغِي (أَطْلُبُ) الذَّهَابَ قُدُمًا (إِلَى
الْأَمَامِ) وَلَمْ أُرِدْ إِلَّا أَنْ أَتَرَوَى (أَتَفَكَّرَ) لَحْظَةً، رَيْنِمَا أَتَبَيَّنُ طَرِيقِي.
وَلَكِنَّ الْعَامِلَ الَّذِي كَانَ يَسُوقُنِي حِينَئِذٍ قَالَ: «إِنَّنِي دَابَّةٌ عَنِيدَةٌ.» وَقَدْ أَهْوَى (نَزَلَ)
عَلَى ظَهْرِي بِضَرْبَةٍ مُوجِعَةٍ مِنْ عَصَاهُ.

وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ تَلَمَّسُ الْعَصَا جَسَدِي (جِسْمِي). وَقَبْلَ أَنْ أُوَاصِلَ سَيْرِي،
حَاوَلْتُ أَنْ أَفَكِّرَ فِيمَا حَدَثَ، وَاتَّعَرَّفَ أَسْبَابَهُ. فَمَا رَاعَنِي (لَمْ يُفَزِّعْنِي) إِلَّا عَصَاهُ، وَهِيَ
تَرْتَفِعُ مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ تَهْوِي (تَسْقُطُ) عَلَى ظَهْرِي مَرَّاتٍ مُتتَالِيَةً (مُتتَابِعَةً). وَلَمْ أَكُنْ
عَلَى الْحَقِيقَةِ أَذْرِي كَيْفَ كَانَتْ تَنْتَهِي النَّتِيجَةُ، لَوْلَا أَنَّ صَدِيقِي «أَبَا عَيْرَةَ» دَانَانِي (قَرَّبَ
مَنِي)، ثُمَّ أَسَرَ إِلَيَّ فِي أُذُنِي هَامِسًا (مُتَحَدِّثًا بِصَوْتٍ خَفِي): «هَلُمَّ فَتَحَرَّكْ — يَا أَبَا زِيَادٍ
— فَهَذَا هُوَ مَا يُرِيدُهُ الرَّجُلُ مِنْكَ أَنْ تَفْعَلَهُ.»

وَكَانَ «أَبُو عَيْرَةَ» مِنْ رِفَاقِي الْمَجْرَبِينَ بِأَخْلَاقٍ سَادَتِنَا الْآنَاسِي (النَّاسِ)، فَلَمْ أَخَالِفْ
لَهُ نَصْحًا. وَمَشَيْتُ فِي حَذَرٍ شَدِيدٍ، وَأَنَا أَتَحَسَّسُ الْأَرْضَ بِأَقْدَامِي، وَتَتَشَبَّثُ حَوَافِرِي بِهَا،
وَقَدْ ضَمَمْتُ جِسْمِي، وَحَنَيْتُ ظَهْرِي، حَتَّى كَادَ يَلْتَصِقُ بِالْأَرْضِ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ. وَلَمْ
أَلْبَثْ أَنْ بَلَغْتُ — فِي النِّهَايَةِ — سَفْحَ الْجَبَلِ سَالِمًا.

(٨) غَبَاوَةُ النَّاسِ

وَكُنْتُ — فِي أَثْنَاءِ سَيْرِي — دَائِمَ التَّفَكُّيرِ، وَأَنَا أَسْأَلُ نَفْسِي: «لِمَ أَذَا ضَرَبَنِي الرَّجُلُ؟
إِنَّنِي لَمْ أُرْتَكِبْ خَطَأً قَطُّ.» وَلَمَّا أُنْزِلَتِ الْأَحْمَالُ مِنْ فَوْقِ ظُهُورِنَا، سَأَلْتُ رَفِيقِي مُتَعَجِّبًا:
«خَبَّرَنِي — يَا أَبَا عَيْرَةَ — مَاذَا نَقَمَ الرَّجُلُ (مَاذَا كَرِهَ وَأَنْكَرَ) مِنِّي، فَأَهْوَى عَلَى جِسْمِي
بِعَصَاهُ الْغَلِيظَةِ؟» فَأَجَابَنِي: «الْأَمْرُ بَيْنَ (وَاضِحٌ) — يَا أَبَا زِيَادٍ — فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ حَسِبَ
(ظَنَّ) — حِينَ تَوَقَّفتُ — أَنَّكَ تُصِرُّ عَلَى الْوُقُوفِ، وَأَنَّكَ حَرَنْتَ فَلَنْ تَسِيرَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَأَصَّرَ

عَلَى أَنْ يُرْغِمَكَ عَلَى السَّيْرِ. وَلَعَلَّهُ لَوْ عَرَفَ السَّبَبَ الَّذِي دَعَاكَ لِلتَّرِيثِ (الْإِبْطَاءِ)، لَكَانَ أَرْأَفَ بِكَ (أَكْثَرَ رَحْمَةً)، وَأَعْظَمَ شَفَقَةً عَلَيْكَ.»

ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ النَّاسَ — يَا أَبَا زِيَادٍ — لَمْ يَبْلُغُوا مِنَ التَّعَقُّلِ وَالْفَهْمِ تِلْكَ الْمُرْتَبَةِ الَّتِي يَتَخَيَّلُونَهَا، وَيَزْعُمُونَهَا لِأَنْفُسِهِمْ. إِنَّهُمْ — لِقَصْرِ عُقُولِهِمْ، وَضَعْفِ إدْرَاكِهِمْ — يَتَهَمُونَنَا بِالْبَلَاهَةِ وَالْغَبَاوَةِ، وَإِنْ كَانُوا هُمْ أَنْفُسُهُمْ يَصِلُونَ — أحيانًا — فِي هَاتَيْنِ الصَّفَتَيْنِ إِلَى أْبْعَدِ مِمَّا بَلَّغْنَا.»

(٩) فَهْمٌ خَاطِئٌ

ذَلِكَ مَا حَدَّثَنِي بِهِ رَفِيقِي «أَبُو عَيْرَةَ» وَهُوَ عَلَى صَوَابٍ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ. وَلَا أَكْثَمَكَ — يَا عَزِيزَتِي «قَسَامَةً» — أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ — لِسُوءِ الْحَظِّ — قَدْ أَسَاءَ الظَّنَّ بِي، فَتَحَامَلَ عَلَيَّ (اشْتَدَّ وَعَنَفَ) بَعْدَ هَذَا الْحَادِثِ الْمَشْتُومِ.

لَقَدْ أَدْخَلَ فِي رُوعِهِ (قَلْبِهِ) أَنَّني حَرُونُ (عَاصٍ لَا أَنْقَادُ)، عَنِيدٌ، فَلَمْ يَنْسَ لِي ذَلِكَ الْمَوْقِفَ أَبَدًا.

وَكُنْتُ — مُنْذُ هَذَا الْيَوْمِ — لَا أَكَادُ أَقْفُ لَحْظَةً، لِاتْتَنَفَسَ أَوْ أَتَمَلَّمَ مِنْ حِمْلِي قَلِيلًا، حَتَّى يَنْهَالَ عَلَيَّ ضَرْبًا مُبَرِّحًا (مُؤْذِيًا)، بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ.

(١٠) جُهْدٌ غَيْرُ مَشْكُورٍ

وَلَقَدْ بَدَلْتُ إِمْكَانِي، وَلَمْ أَدْجُرْ وَسْعًا فِي إِرْضَاءِ صَاحِبِي، وَتَحْقِيقِ رَغْبَاتِهِ. فَانْطَلَقْتُ أَمْشِي فِي الْمُنْحَدِرَاتِ وَالْمُنْعَرَجَاتِ الضَّيِّقَةِ، بِخُطَى ثَابِتَةٍ، قَانِعًا بِالتَّأْفِهِ (الْحَقِيرِ) مِنَ الزَّادِ، رَاضِيًا بِالْأَقْلِ الْأَخْسَرِ مِنَ الطَّعَامِ. حَتَّى لَوِدِدْتُ (تَمَنَّيْتُ) لَوْ قَدَرْتُ عَلَى الْحَيَاةِ — بِغَيْرِ زَادٍ — مَا دَامَ يَحْلُو لَهُ أَنْ أَمُوتَ جُوعًا. وَكُنْتُ أَحْمِلُهُ مُسْرِعًا فِي السُّهُولِ، وَأَعْدُو (أَجْرِي) بِهِ فِي أَشْنَاءِ عَوْدَتِهِ. وَلَكِنْ هَذَا كُلُّهُ لَمْ يُجِدْ نَفْعًا. فَقَدْ اسْتَقَرَّ فِي خَلْدِهِ (بَالِهِ)، وَثَبَتَ فِي نَفْسِهِ: أَنَّني حَرُونُ عَنِيدٌ، وَأَنَّني إِنَّمَا أُسْرِعُ فِي الْجَرِيِّ، خَوْفًا مِنْ عَصَاهُ، لَا تَلْبِيَةَ لِهَوَاهُ، وَاسْتِجْلَابًا لِمَحَبَّتِهِ وَتَوْخِيًا (اخْتِيَارًا وَقَصْدًا) لِرِضَاهُ. فَلَمْ يُغْنِنِي ذَلِكَ أَقْلَ غِنَاءٍ (لَمْ يَعُدْ عَلَيَّ بِأَقْلٍ فَائِدَةٍ). وَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي ضَرْبِي لِاتَّفِهِ الْأَسْبَابِ، كُلَّمَا خِيلَ إِلَيْهِ أَنَّني قَصُرْتُ.

(١١) في محلة القصب

فَقُلْتُ لَهُ مُهَدِّئَةً مِنْ أَلَمِهِ وَحَدِّثَهُ، مُحَفِّفَةً مِنْ غَضَبِهِ وَثَوْرَتِهِ: «مُسْكِينُ أَنْتَ يَا صَاحِبِي. لَقَدْ مَرَّتْ بِكَ أَوْقَاتٌ سُوْدٌ، وَمَحَنٌ (مَصَائِبُ) قَاسِيَةٌ. فَقَدْ لَقِيتَ — إِلَى وَفْرَةِ الْعَنَاءِ (كَثْرَةِ التَّعَبِ) — سُوءَ الْجَزَاءِ (قُبْحَ الْمُكَافَأَةِ). فَكَمْ مِنَ الزَّمَنِ بَقِيَتْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ؟»
فَقَالَ «أَبُو زِيَادٍ»: «سَنَوَاتٌ عِدَّةٌ — عَلَى الْحَقِيقَةِ — حَتَّى فَرَعْتَ مُحْنَوِيَّاتِ الْمَنَاجِمِ.»
فَقُلْتُ لَهُ: «فَمَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْأَحْدَاثِ (الْحَوَادِثِ) بَعْدَ ذَلِكَ؟» فَقَالَ: «لَقَدْ بَاعَنِي صَاحِبِي — مَعَ جَمَهَرَةٍ مِنْ رِفَاقِي وَإِخْوَانِي — لِرَجُلٍ آخَرَ. فَسَارَ بِنَا فِي الْوُدَيَانِ وَالسُّهُولِ، حَتَّى بَلَغْنَا مَحَلَّةً كَبِيرَةً، حَيْثُ وَضَعْنَا فِي عَرَبَةٍ قِطَارَ أَقْلُنَا (حَمَلْنَا) حَتَّى بَلَغَ بِنَا شَاطِئُ الْبَحْرِ. وَثُمَّ حَلَلْنَا سَفِينَةً كَبِيرَةً نَقَلْتَنَا إِلَى مَرْزَعَةٍ وَاسِعَةٍ يَنْمُو فِيهَا قَصَبُ السُّكَّرِ. وَلَمْ يَكُنِ الْمَكَانُ بَلَدًا عَظِيمًا كَذَلِكَ الْبَلَدِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، بَلْ دَسْكَرَةٌ (قَرْيَةٌ) مُشْرِفَةٌ عَلَى الْبَحْرِ، مَمْلُوءَةٌ بِالْهَضَبَاتِ وَالْمُرْتَفَعَاتِ.

وَأَغْلَبَ الظَّنُّ أَنَّهَا — لَوْ لَمْ تَكُنْ هَكَذَا — لَمَا احْتَاجَ إِلَيْنَا أَحَدٌ. وَافْتَصَرَ عَمَلْنَا عَلَى حَمْلِ عِيدَانِ الْقَصَبِ إِلَى الْمَعَاصِرِ. وَلَكِنَّ الطَّرِيقَ — الَّتِي كُنَّا نَجُوسُ أَثْنَاءَهَا (نَسِيرُ خِلَالَهَا) — كَانَتْ شَدِيدَةً الْإِنْجِدَارِ، حَتَّى لَيَضَعُبُ عَلَى السَّائِرِينَ مِنَ النَّاسِ أَنْ تَسْتَقِرَّ عَلَيْهِمْ أَقْدَامُهُمْ. وَكَانَ الرَّجُلُ الْمُنُوْطُ (الْمُتَعَلِّقُ) بِهِ رِعَايَتَنَا (الْعِنَايَةَ بِنَا)، أَحْسَنَ بِكَثِيرٍ مِنْ صَاحِبِنَا الْأَوَّلِ. وَكَانَ عَلَى الْأَغْلَبِ — فِيمَا يَلُوحُ لَنَا — طَيِّبَ الْقَلْبِ، حَسَنَ الْمُعَامَلَةِ. وَلَكِنَّنَا لَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ مَاذَا يَحْدُثُ مِنْهُ فِيمَا بَعْدُ.

(١٢) نِهَايَةُ كَرِيمٍ

وَذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَا كُنَّا نَهْبِطُ فِي طَرِيقٍ مُنَحَدِرٍ، يَكَادُ يَكُونُ عَمُودِيًّا، زَلَّتْ قَدَمُهُ، فَهَوَى (سَقَطَ) إِلَى الْقَاعِ، وَتَرَدَّى فِي الْحَضِيضِ (وَقَعَ فِي الْمَكَانِ الْوُطِيِّ السَّحِيقِ). وَلَمْ نَرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَا شَكَّ عِنْدِي فِي أَنَّهُ قُتِلَ.
وَلَا تَسْأَلِي — يَا أُمَّ سَوَادَةَ — عَنْ مَبْلَغِ حُزْنِنَا عَلَيْهِ. فَقَدْ أَحْبَبْنَاهُ لِشَفَقَتِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَالْحِمَارُ — كَمَا تَعْلَمِينَ — شُكُورٌ يَنْمُرُ فِيهِ الْمَعْرُوفُ.

وَلَا غَرَوَ (لَا عَجَبَ) فِي ذَلِكَ، فَقَدْ وَرِثْنَا هَذَا الْخُلُقَ النَّبِيلَ عَنْ جَدِّنَا الْأَعْلَى: «شَحَاجٍ»
 — مُنْذُ بَدَأَ الْخَلِيقَةَ إِلَى الْيَوْمِ — وَامْتَلَأَتْ قُلُوبُنَا عِرْفَانًا بِالْجَمِيلِ. وَجَنَسْنَا مُتَحَابُّ (يُحِبُّ
 بَعْضُهُ بَعْضًا)، مَعْرُوفٌ بِنَقَاءِ السَّرِيرَةِ (حُسْنِ النِّيَّةِ)، وَطَيِّبَةِ الْقَلْبِ. لَا يَتَرَدَّدُ فِي شُكْرِ مَنْ
 يُحْسِنُ إِلَيْهِ، مَهْمَا قَلَّ مَا يُسَدِّدُهُ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيلٍ (مَا يُقَدِّمُهُ لَهُ مِنْ مَعْرُوفٍ).
 فَقَالَتْ «قَسَامَةٌ»: «هَكَذَا سَمِعْتُ، يَا أَبَا زِيَادٍ؟ فَكَيْفَ حَالُ سَيِّدِكَ الْجَدِيدِ؟» فَقَالَ:
 «لَقَدْ كَانَ أَطْيَبَ مَنْ عَرَفْتُ مِنَ النَّاسِ قَلْبًا، وَأَصْفَاهُمْ نَفْسًا، وَأَوْفَرَهُمْ (أَكْثَرَهُمْ) رَحْمَةً:
 كَانَ مِنَ الزُّنُوجِ. وَكَانَ وَجْهُهُ أَشَدَّ سَوَادًا مِنْ جَمِيعِ رِفَاقِهِ (مِنْ كُلِّ أَصْحَابِهِ). وَلَكِنَّ
 أَيْادِيَهُ الْبَيْضَ (نِعْمَةَ الْحَسَنِ) قَدْ مَلَأَتْ قُلُوبَنَا حُبًّا لَهُ وَعِرْفَانًا لِجَمِيلِهِ. فَقَدْ اعْتَادَ أَنْ
 يُغْنِيَنَا وَنَحْنُ نَمْشِي الْهُوَيْنَى (فِي بَطْنٍ)، وَعَلَيْنَا الْأَثْقَالُ وَالْأَحْمَالُ. وَكَانَتْ الرِّحْلَاتُ تَبْدُو لَنَا
 — عَلَى طُولِهَا — أَقْصَرَ مِمَّا هِيَ، كَمَا كُنَّا نَشْعُرُ أَنَّ أَحْمَالَنَا الثَّقِيلَةَ أَخَفُّ مِنْ حَقِيقَتِهَا.»

الفصل الخامس

عُودَةُ أَبِي زِيَادٍ

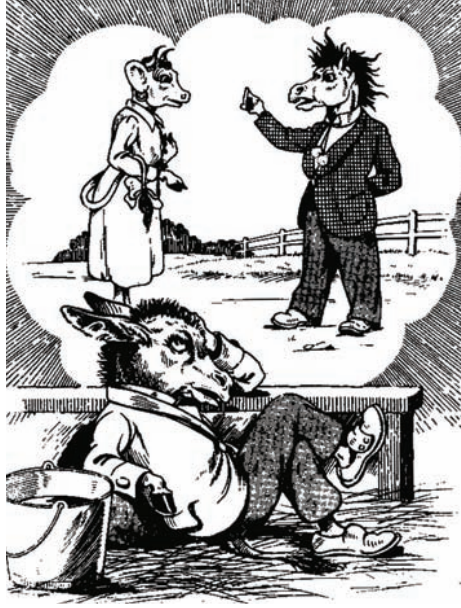
(١) ذِكْرِيَّاتُ الْإِصْطَبَلِ

لَقَدْ تَدَاوَلْتَنِي مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ، كَثِيرٌ مِنَ الْأَيْدِي، (أَخَذْتَنِي هَذِهِ مَرَّةً، وَهَذِهِ مَرَّةً)، وَحَلَلْتُ فِي أَمَاكِنَ عِدَّةٍ، لَقِيتُ فِيهَا فُنُونًا (صُنُوفًا) مِنَ السَّعَادَةِ، وَضُرُوبًا مِنَ الشَّقَاءِ. وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ عَامًا قَضَيْتُهُ فِي ضَيْعَةٍ شَبِيهَةٍ بِضَيْعَتِكُمْ هَذِهِ، الَّتِي نَعِمْتُ فِيهَا بِلُقْيَاكِ (لِقَائِكَ) يَا «أُمُّ سَوَادَةَ».

وَكَانَ يُؤْنَسُنَا فِي الْإِصْطَبَلِ — حِينُنْدِ — جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَصْفِيَاءِ، نَعِمْتُ بِحُبِّهِمْ، وَسُعِدْتُ بِإِيْنَاْسِهِمْ. أَهْ يَا ابْنَةَ عَمٍّ! أَيْنَ مِنْ عَيْنِي ذَلِكَ الْعَهْدُ السَّعِيدُ، وَعَيْشُهُ الرَّغِيدُ (الطَّيِّبُ الْوَاسِعُ).

أَيْنَ مِنْ عَيْنِي تِلْكَ الْبَقَرَةُ الْجَمِيلَةُ السَّمْرَاءُ الشَّعْرُ، الَّتِي كُنَّا نَطْلُقُ عَلَيْهَا لَقَبَ: الْخَنَسَاءِ.

وَأَيْنَ بِنْتُهَا الْجُودَرَةُ: تِلْكَ الْعِجَلَةُ الظَّرِيفَةُ؟ أَيْنَ أُمُّ الْأَشْعَثِ: تِلْكَ الْعَنْزُ الرَّشِيقَةُ (ذَاتُ الْقَدِّ الْحَسَنِ اللَّطِيفِ)، الْمُرْتَفَعَةُ الْقَرْنَيْنِ، الطَّوِيلَةُ اللَّحْيَةِ، الْمُؤَفُّورَةُ النَّشَاطِ، الدَّائِمَةُ الْجَرِيِّ، الَّتِي لَا تَكَادُ تَسْتَقَرُّ فِي مَكَانِهَا لَحْظَةً؟ وَأَيْنَ وَلَدُهَا أَبُو بُجَيْرٍ: ذَلِكَ الْفَتَى الْحَبِيبُ إِلَى نَفْسِ كُلِّ مَنْ رَأَاهُ؟ لَقَدْ كَانَ — حِينُنْدِ — فِي مُقْتَبَلِ شَبَابِهِ. وَمَا أَظُنُّه بَاقِيًا — إِلَى الْيَوْمِ — عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ!



أَيْنَ أُمِّ فَرْوَةَ: تِلْكَ النَّعْجَةُ الْبَيْضَاءُ الْمَرِحَّةُ (الَّتِي اشْتَدَّ فَرَحُهَا وَنَشَاطُهَا حَتَّى جَاوَزَ الْحَدَّ). شَدَّ مَا كَانَتْ تُزْهِى وَتَحْتَالُ حِينَ تُنَادِيهَا بِـ«أُمِّ فَرْوَةَ»: تِلْكَ الْكُنْيَةُ الْحَبِيبَةُ إِلَى نَفْسِهَا. وَأَيْنَ وَلَدُهَا: الطَّلِيُّ؟ مَا كَانَ أَجْمَلَهُ حَمَلًا (خَرُوفًا فَتِيًّا)! وَمَا كَانَ أَظْرَفَ شَعْرَهُ الْمَجْعَدَ (شَعْرَهُ الَّذِي فِيهِ التَّوَاءُ وَتَقْبُضُ)!

وَأَيْنَ أَبُو دُلْفَ: ذَلِكَ الْخَنُوصُ (الْخَنْزِيرُ الصَّغِيرُ) الْمَكْفَتُ الْأَنْفِ (يَعْنِي: أَنَّ أَنْفَهُ مُتَضَامٌ مُتَكَبِّبٌ)؟ وَأَيْنَ صَدِيقِي الْعَزِيزُ «لَاحِقُ». لَقَدْ كَانَ — يَا أُمِّ سَوَادَةَ — جَوَادًا (حِصَانًا) جَمِيلًا. أَسْمَرَ، كَرِيمَ الطَّبْعِ. وَقَدْ ذَكَرْتَنِي بِهِ شَمَائِكَ (طَبَائِعِكَ وَأَخْلَاقِكَ) النَّبِيلَةُ، وَمَا مَيَّزَكَ اللَّهُ بِهِ مِنْ لُطْفٍ وَدَمَائَةٍ (خُلُقٍ سَهْلٍ).

وَأَيْنَ ابْنُ وَازِعٍ: حَارِسُ الْإِصْطَبَلِ، الْجَرِيُّ الْيَقِظُ، الَّذِي كَانَ اسْمُهُ يَقْدَفُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الذَّنَابِ وَاللُّصُوصِ جَمِيعًا.

وَمَا أَنَسَ — مِنْ تِلْكَ الْأَيَّامِ الْبَهِيجَةِ الَّتِي قَضَيْتُهَا فِي ذَلِكَ الْإِصْطَبَلِ الْفَسِيحِ — لَا أَنَسَ لَيْلَةً اسْتَيْقَظْتُ فِيهَا عَلَى رَيْنِ صَوْتِ عَالٍ، تَبَيَّنَ لِي — بَعْدَ قَلِيلٍ — أَنَّهُ مُنْبَعَثٌ مِنْ جَلَاجِلِ أُمَّ الْأَشْعَثِ (العَنْزِ) فَعَاتَبْتُهَا، فَاعْتَذَرْتُ عَمَّا بَدَرَ مِنْهَا. وَمَا كَادَتْ تُتِمُّ اعْتِذَارَهَا حَتَّى اسْتَيْقَظَتِ الْحَنَسَاءُ (البَقْرَةُ) مِنْ نَوْمِهَا، وَأَنْحَتَ عَلَيْهَا بِاللَّائِمَةِ (أَقْبَلَتْ عَلَيْهَا تَلُومَهَا). وَاسْتَيْقَظَ مَعَهَا أَبُو دُلْفَ (الْخَنْزِيرُ)، وَالطَّلِي (الْحَمَلُ)، وَأَبُو بُجَيْرٍ (الْجَدْيُ)، وَأُمُّ فَرْوَةَ (النَّعْجَةُ)، وَأُمُّ الْأَشْعَثِ (العَنْزُ)، وَلَاحِقُ (الْجَوَادُ). يَا لَهَا لَيْلَةً بَهِيجَةً، مَرَّتْ بِنَا كَمَا تَمُرُّ الْأَحْلَامُ السَّعِيدَةُ! لَقَدْ مَثَلْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ — مَسَلَةً رَائِعَةً فِي ذَلِكَ الْإِصْطَبَلِ الْفَسِيحِ. »

وَدَفَعَنِي الشُّوقُ إِلَى تَعَرُّفِ تِلْكَ الْمَسَلَةِ الَّتِي مَثَلَهَا «أَبُو زِيَادٍ» وَأَصْحَابُهُ فِي الْإِصْطَبَلِ، فَأَفْضَى إِلَيَّ (أَخْبَرَنِي) بِهَا فِي أُسْلُوبٍ مُمْتِعٍ جَدَّابٍ. وَقَدْ حَفَرَنِي (دَفَعَنِي) فَرَطُ الْإِعْجَابِ بِتِلْكَ الْمَسَلَةِ (الْكُومِدِيَا) إِلَى تَصْدِيرِ خَوَاطِرِي بِهَا (جَعَلَهَا صَدْرًا لَهَا وَدِيَابَجَةً)، لِتَكُونَ أَوَّلَ مَا تَمْنَعُ بِهِ أَيُّهَا الْقَارِئُ الصَّغِيرُ.

وَلَمَّا سَأَلْتُ «أَبَا زِيَادٍ» أَنْ يَتِمَّ مَا بَدَأَهُ مِنْ حَدِيثٍ، قَالَ: «إِنَّ تَارِيخِي — يَا أُمَّ سَوَادَةَ — مُتَشَعَّبٌ، حَافِلٌ (مَمْلُوءٌ) بِالْكَوَارِثِ وَالْمِحَنِ (الْمَصَائِبِ وَالْخُطُوبِ). وَحَسْبِي أَنْ أَجْزِيَئَ (أَكْتَفِي) مِنْهُ بِأَشَدِّ أَثَرٍ فِي نَفْسِي.

(٢) السَّفِينَةُ الْغَارِقَةُ

قُلْتُ لِكَ — يَا «أُمَّ سَوَادَةَ» — إِنَّنِي تَقَلَّبْتُ فِي فُنُونِ مِنَ السَّعَادَةِ، وَضُرُوبٍ مِنَ الشَّقَاءِ. وَلَقَدْ مَرَّ عَلَيَّ — بَعْدَ أَنْ مَاتَ صَاحِبُ الضَّيْعَةِ، وَانْتَقَلْتُ أَمْلَاكُهُ إِلَى غَيْرِهِ — زَمَنٌ طَوِيلٌ زَاخِرٌ بِفُنُونِ الْبَلَاءِ، وَجَالِبَاتِ الشَّقَاءِ.

وَعَلَى مَا كَابَدْتُهُ — مِنْ عَمَلٍ مُضِنٍّ (مُمْرِضٍ) وَسُوءِ مُعَامَلَةٍ — سَمِعْتُ النَّاسَ يَنْعُنُونَنِي (يَصِفُونَنِي) بِالرَّشَاقَةِ (حُسْنِ الْقَدِّ وَلُطْفِهِ)، وَالْأَنَاقَةِ (الْجَمَالِ الْمُعْجِبِ). وَذَاتَ يَوْمٍ جَاءَنِي رَجُلٌ مِنَ الْمُوسِرِينَ (الْأَغْنِيَاءِ)، فَاشْتَرَانِي، وَسَارَ بِي حَتَّى بَلَّغْنَا شَاطِئَ الْبَحْرِ، حَيْثُ أَقْلَتَنِي (حَمَلَتَنِي) سَفِينَةٌ مَعَهُ. وَقَدْ سَمِعْتُ السَّيِّدَ الْجَدِيدَ يَقُولُ إِنَّ

لَهُ بِنْتًا صَغِيرَةً، وَإِنَّهَا تَرَى فِي مِثْلِي خَيْرَ أَنْيْسٍ وَصَاحِبٍ. وَنَمَّةَ (هُنَا) اسْتَرَحْتُ، وَدَبَّ فِي قَلْبِي دَبِيبُ الْأَمَلِ، فَقَدْ اعْتَقَدْتُ أَنَّ حَظِّي الْحَسَنَ قَدْ عَادَ إِلَيَّ. وَلَكِنْ شَدَّ مَا خَابَ ظَنِّي، فَقَدْ عَرَفْتُ السَّفِينَةَ بِمَنْ فِيهَا وَلَمْ يَنْجُ أَحَدٌ - غَيْرِي - مِنْ رَاكِبِيهَا. وَلَقَدْ كُنْتُ فِيهَا مِنَ الْمُغْرَقِينَ، لَوْلَا أَنْبِي - لِحَسَنِ حَظِّي أَوْ سُوءِهِ - قَدْ نَجَوْتُ مِنَ الْغَرَقِ، وَسَلِمْتُ مِنَ الْهَلَاكِ، بِأَعْجُوبَةٍ.

أَتَعْرِفِينَ كَيْفَ سَلِمْتُ؟ لَقَدْ فَتَحَ أَحَدُ الْمَلَّاحِينَ بَابَ غُرْفَتِي قُبَيْلَ أَنْ يَمْلَأَهَا الْمَاءُ، وَكَانَ قَدْ ارْتَفَعَ حَتَّى غَمَرَ قَوَائِمِي (عَلَا يَدَيَّ وَرَجْلِي). وَرَأَيْتُنِي - حِينَئِذٍ - أَغَالِبُ الْأَمْوَاجِ وَأُصَارِعُهَا، ضَارِبًا إِيَّاهَا بِكُلِّ قُوَّتِي. ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ قَوَائِمِي عَلَى السَّاحِلِ، وَلَمَسْتُ أَرْضَ الشَّاطِئِ فَجَاءَ. وَتَمَّ رَأَيْتُ رَجُلًا وَاقِفًا عَلَى الضِّفَّةِ قَرِيبًا مِنِّي. فَأَمْسَكَ بِي مِنْ مَعْرِفَتِي (شَعَرَ عُنُقِي)، ثُمَّ جَذَبَنِي مِنَ الْمَاءِ فَأَخْرَجَنِي.

(٣) صَيَّادُ السَّمَكِ

وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ - كَمَا عَلِمْتُ فِي قَابِلِ أَيَّامِي - صَيَّادَ سَمَكٍ شَدِيدَ الْفَقْرِ، فَأَخَذَنِي مَعَهُ إِلَى عُسْتِهِ الْحَقِيرَةِ الْبَائِسَةِ. وَكَانَتْ فِرَوْتِي الْجَمِيلَةَ لَا تَزَالُ مُبْتَلَةً، فَلَمْ يُعَنْ (لَمْ يَهْتَمَّ) بِتَجْفِيفِهَا، فَارْتَعَشْتُ مِنَ الْبُرْدِ. وَرَأَيْتُ أُرْتَعِدُ (أُرْتَعِشُ)، فَلَمْ يَأْبَهُ لِأَمْرِي، وَلَمْ يَحْفَلْ بِمَا أَصَابَنِي.

ثُمَّ وَضَعَنِي فِي زُرْبَةٍ قَدِيمَةِ الْبُنْيَانِ، مُتَدَاعِيَةِ الْجُدْرَانِ (مُتَهَدِّمَةِ الْحِيطَانِ). وَكَانَتْ - عَلَى قَدَارَتِهَا - يَتَخَلَّلُهَا تَيَّارٌ مِنَ الْهَوَاءِ. وَقَدْ بَخَلَ عَلَيَّ - إِلَى ذَلِكَ - بِحُزْمَةٍ مِنَ الْقَشِّ، تَكُونُ لِي مِهَادًا (فِرَاشًا)، أُرِيحُ نَفْسِي عَلَيْهِ، فِي أَثْنَاءِ النَّوْمِ.

(٤) الْأُنْسَرَةُ الْبَائِسَةُ

يَا لَهُ مِنْ عَهْدٍ طَوِيلٍ حَافِلٍ (مَمْلُوءٍ) بِفُنُونِ الْبُؤْسِ، وَضُرُوبِ الشَّقَاءِ. فَلَا مَرَّ سَرِيعًا بِهِذِهِ السَّنِينَ التَّاعِسَةِ الَّتِي قَضَيْتُهَا عِنْدَ الصَّيَّادِ. فَمَا أَشْكُ فِي أَنَّ الْمَتَاعَبَ الَّتِي حَفَلَتْ بِهَا حِينَئِذٍ كَانَتْ - عَلَى كَثَرَتِهَا - قَلِيلَةً الْخَطَرِ، لِأَنَّهَا لَا تَتَجَاوَزُ فَقْدَانَ الطَّعَامِ، أَوْ فَقْدَانَ الْمَاءِ

النَّظِيفِ، أَوْ فَقَدَانِ الْعِنَايَةِ بِمَشْطِ شَعْرِي، إِلَى أَشْبَاهِ ذَلِكَ مِنَ الْمُنْعَصَاتِ الَّتِي يَهُونُهَا الصَّبْرُ.

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ، فَقَدْ بَدَلَ الصَّيَّادُ الْفَقِيرُ قُصَارَى جُهِدِهِ (غَايَةَ مَا فِي وَسْعِهِ)، وَلَمْ يَتَعَمَّدِ التَّقْصِيرَ فِي شَيْءٍ مِنْ حُقُوقِي. لَقَدْ كَانَ عَائِلًا (كَانَ لَهُ أَوْلَادٌ يَعُولُهُمْ، أَغْنَى: يَقُولُهُمْ وَيُنْفِقُ عَلَيْهِمْ)، وَكَانَتْ زَوْجُهُ مُعْتَلَّةَ الْجِسْمِ، لَا تَكَادُ تُفِيقُ مِنْ أَمْرَاضِهَا. وَلَمْ يَكُنْ حَظُّ تِلْكَ الْأُسْرَةِ الْمُنْكَودَةِ فِي الْحَيَاةِ بِأَحْسَنَ مِنْ حَظِّي التَّاعَسِ. لَقَدْ كُنَّا جَمِيعًا أُسْرَةً مُهْمَلَةً الْعِنَايَةِ، لَمْ تُظْفَرْهَا الدُّنْيَا بِشَيْءٍ مِنَ الرَّعَايَةِ. وَشَعْتُ شَعْرِي (تَفَرَّقَ) شَيْئًا فَشَيْئًا. وَهَزَلْتُ، وَشَعَرْتُ بِالذَّلَّةِ، بَعْدَ أَنْ فَقَدْتُ الْعُجْبَ وَالزَّهْوَ بِجَمَالِي. وَلَكِنِّي بَقِيتُ — بِرَغْمِ هَذَا — مُحْتَفَظًا بِقُوتِي. وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ فَإِنَّا — مَعَشَرَ الْحَمِيرِ — قَادِرُونَ عَلَى الْإِحْتِمَالِ، مَعْرُوفُونَ بِالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ، نَتَحَمَّلُ شَطَفَ الْعَيْشِ (خُشُونَتَهُ) دُونَ أَنْ نُجَسَّ الْمَأْمَا، أَوْ نَشْعَرَ بِغَضَاضَةٍ (ذِلَّةً).

(٥) غَابِرُ سَبِيلٍ

فَقُلْتُ لَهُ: «صَدَقْتَ يَا ابْنَ عَمٍّ، فَقَدْ سَمِعْتُ ذَلِكَ عَنْكُمْ. وَلَكِنْ خَبَّرَنِي كَيْفَ تَسْنَى (تَيْسَرُ) لَكَ أَنْ تَفَارِقَ هَذَا الصَّيَّادَ؟»

فَقَالَ «أَبُو زِيَادٍ» مَفْكَرًا: «هَذَا مَا لَمْ أَفْهَمْهُ إِلَى الْآنَ. لَقَدْ حَمَلْتُ عَلَى ظَهْرِي مِشْنَتَيْنِ مَمْلُوءَتَيْنِ سَمَكًا، وَذَهَبْتُ بِهِمَا إِلَى السُّوقِ. ثُمَّ وَقَفْتُ أَمَامَ الدُّكَّانِ الَّذِي دَخَلَهُ صَاحِبِي. وَإِنِّي لَوَاقِفٌ، إِذَا بِرَجُلٍ غَابِرٍ سَبِيلٍ قَدْ وَقَفَ وَنَظَرَ إِلَيَّ، ثُمَّ قَالَ يَخَاطِبُ نَفْسَهُ مُتَعَجِّبًا: «وَيْ! مَا أَجْمَلُهُ حِمَارًا، لَوْ رُزِقَ حَظًّا مِنَ الْعِنَايَةِ، وَلَقِيَ نَصِيبًا مِنَ الرَّعَايَةِ. أَمَّا إِنَّهُ لَوْ ظَفَرَ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ نِظَافَةٍ وَطَعَامٍ، لَبَدَّ (فَاقَ) «سُكَيْنًا» ذَلِكَ الْحِمَارَ الَّذِي لَا يَكْفُ عُمْدَةُ الْقَرْيَةِ عَنِ الْمُبَاهَاةِ بِهِ، وَيَزْعُمُ أَنَّ أَصْلَهُ مِنْ بَنَاتِ صَعْدَةِ (مِنْ نَسْلِ حُمُرِ الْوَحْشِ)، لَا مِنْ بَنَاتِ شَحَاجٍ جَدْنَا الْأَعْمَى الْقَدِيمِ. وَلَقَدْ كَادَ الْجُوعُ وَالْإِهْمَالُ يَقْتُلَانِهِ وَيُعْجِرَانِهِ عَنِ الْعَمَلِ، وَيَسْلُبَانِهِ الرِّشَاقَةَ وَالنَّشَاطَ.

أَلَا لَيْتَ صَاحِبَهُ يَبِيعُهُ فَأَشْتَرِيهِ مِنْهُ بِأَيِّ ثَمَنِ شَاءَ.»

(٦) عِنْدَ سَقَطِي

وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ خَرَجَ الصَّيَّادُ مِنَ الدُّكَانِ. وَبَعْدَ أَنْ حَادَثَ ذَلِكَ الْغَرِيبَ، رَفَعَ الْمِسْتَتِينَ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِي، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى حَيْثُ لَا أَذْرِي. وَأَصْبَحَ ذَلِكَ الْغَرِيبُ سَيِّدًا لِي مُنْذُ هَذَا الْيَوْمِ. وَقَدْ اتَّضَحَ لِي — فِيمَا بَعْدُ — أَنَّهُ كَانَ سَقَطِيًّا.»

فَقُلْتُ لَهُ مُتَعَجِّبَةً: «وَمَا هُوَ السَّقَطِي، فَإِنِّي لَا أَعْرِفُهُ يَا أَبَا زِيَادٍ؟»
فَقَالَ: «إِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي يَتَجَرَّ فِي سَقَطِ الْمَتَاعِ (رَدِيءِ الْأَشْيَاءِ). وَقَدْ تَعَوَّدَ السَّقَطِي أَنْ يَمُرَّ بِي عَلَى أَبْوَابِ الْمَنَازِلِ. وَكَانَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ، يَتَجَرَّ فِي الْخَضِرِ لِيَبِيعَهَا فِي الْمَدِينِ. وَقَدْ أَلْفْتُ جَرَّ مَرْكَبَتِهِ، وَالسَّيْرَ عَلَى قَوَائِمِي طُولَ النَّهَارِ، وَارْتَاَحَتْ نَفْسِي لِتِجَارَةِ الْخَضِرِ. فَقَدْ كُنْتُ أَجْرُ مَرْكَبَةٍ صَغِيرَةٍ كُلَّ صَبَاحٍ، وَأَسُوقُهَا فِي أَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ، حَيْثُ أَقْضِي مَعَهُ أَكْثَرَ الْيَوْمِ، بَلْ كُلُّهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ. فَكَانَ طَعَامِي مَوْفُورًا (كَثِيرًا)، وَالْخَضِرُ مِنْ أَشْهَى الزَّادِ لَدَيَّ بِالطَّبْعِ. فَسَمَنْتُ، وَحَسَنْتُ صَحَّتِي، وَاسْتَرَدَدْتُ (اسْتَرْجَعْتُ) قُوَّتِي مِنْ جَدِيدٍ. وَلَكِنَّ جِلْدِي لَمْ يَظْفَرْ بِمَا يَتَطَلَّبُهُ مِنَ الْمَشْطِ وَالنَّظْطِيفِ قَطُّ. وَلَعَلَّكَ تَدَهَشِينَ إِذَا أَخْبَرْتُكَ أَنَّنِي لَقِيتُ بَعْدَ ذَلِكَ — مِنْ فُنُونِ الْإِهْمَالِ — مَا لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُرَ لِي عَلَى بَالٍ. أَتَصَدِّقِينَ أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ أَظْفَرُ بِالرَّاحَةِ طُولَ اللَّيْلِ؟ وَأَنَّ مَا كُنْتُ أَلْقَاهُ مِنَ الصَّرْبِ — فِي أَثْنَاءِ النَّهَارِ — قَدْ حَرَمَنِي نَوْمِي، وَأَقْضَى مَضْجَعِي لَيْلًا (جَعَلَهُ خَشِنًا، وَالْمَضْجَعُ: الْمَحَلُّ الَّذِي يَضَعُ جَنْبَهُ بِهِ). فَلَمْ تَطْعَمْ جَفْنَائِي غَمْضًا (لَمْ تَذُقْ عَيْنَائِي نَوْمًا).»
فَقُلْتُ لَهُ فِي هُدُوءٍ: «لَعَلَّ مَتَاعَكَ قَدْ أَتْلَفْتَ صِحَّتَكَ، وَصِيرْتَكَ مَغْلُوبًا عَلَى أَعْصَابِكَ، وَحَبَبْتَ إِلَيْكَ الْعِنَادَ، فَأَصْبَحْتَ حَرُونَ شَيْئًا؟»

(٧) قَبْلَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ

فَأَجَابَنِي فِي لَهْجَةِ الْيَأْسِ الْحَزِينِ: «لَعَلَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ صَحِيحٌ. عَلَى أَنَّ الصَّرْبَ لَمْ يَعُدْ يُجْدِينِي نَفْعًا.» فَقُلْتُ لَهُ: «كَمْ مِنَ الزَّمَنِ قَضَيْتَ مَعَ هَذَا السَّقَطِي؟» فَقَالَ: «لَا زَمَنُتُهُ إِلَى مَا قَبْلَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مَضَتْ! وَقَدْ لَقِيتُ مِنْ سُوءِ مُعَامَلَتِهِ، مَا بَعْضُ إِلَيَّ الْحَيَاةِ. فَلَمْ أَعُدْ أَحْفَلُ بِالْبَقَاءِ، وَأَصْبَحْتُ لَا أَبَالِي حَيَاتِي وَمَمَاتِي، فَهُمَا عِنْدِي سَوَاءٌ. فَلَا تَعْجِبِي إِذَا أَخْبَرْتُكَ

أَنْبِي زَهْدْتُ فِي الطَّعَامِ، وَقَلَّ أَكْلِي شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى هَزَلَ جِسْمِي، وَاعْتَلَّتْ صِحَّتِي. وَمَا زِلْتُ أَرْتَكِسُ (كَلَّمَا نَجَوْتُ مِنْ عِلَّةٍ، رَجَعْتُ إِلَيَّ)، وَيَشْتَدُّ بِي ضَعْفِي، حَتَّى عَجَزْتُ عَنْ جَرِّ الْمَرْكَبَةِ. وَأَصْبَحْتُ أَتَوُّ بِمَا أَحْمِلُهُ مِنْ أَثْقَالٍ (لَا أَقُومُ بِهَا إِلَّا مَجْهُودًا مُنْعَبًا مُثْقَلًا).

(٨) عَجَزُ الشَّيْخُوخَةِ

فَقُلْتُ لَهُ: «تُمْ مَاذَا حَدَّثَ؟» فَقَالَ: «لَقَدْ ضَجِرَ (ضَاقَ) بِي صَاحِبِي كَمَا ضَجِرْتُ بِهِ، وَمَلَّنِي كَمَا مَلَّنْتُهُ. فَقَالَ لِي — ذَاتَ يَوْمٍ — غَابِسًا: «لَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَحْتَمِلَ بَقَاءَكَ عِنْدِي بَعْدَ الْيَوْمِ. فَإِنَّكَ عَاجِزٌ عَنِ الْعَمَلِ. فَمَا حَاجَتِي إِلَى عَاجِزٍ مِثْلِكَ؟ خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَجُولَ فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ (تَمْشِي فِي نَوَاحِيهَا)، لَعَلَّكَ تَهْتَدِي بِنَفْسِكَ إِلَى بَيْتِ مُوسِرٍ (غَنِيٍّ) كَرِيمٍ: يُؤْوِيكَ، وَيُطْعِمُكَ، دُونَ أَنْ تُؤَدِّيَ لَهُ عَمَلًا.» ثُمَّ تَرَكَنِي فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ.

(٩) فِي مُنْتَصَفِ الشِّتَاءِ

فَقُلْتُ لَهُ: «لَقَدْ حَدَّثَنِي: أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ أَخْرَجَكَ مِنْ بَيْتِهِ، مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، أَغْنِي: أَنَّهُ طَرَدَكَ فِي مُنْتَصَفِ فَصْلِ الشِّتَاءِ. فَكَيْفَ صَنَعْتَ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ؟» فَقَالَ: «ذَهَبْتُ أَرْتَادُ (أَطْلُبُ) الْأَمَاكِنَ الْخُلُويَّةَ، وَانْتَقَلْتُ مِنْ مَحَلَّةٍ إِلَى أُخْرَى. وَلَمْ يَكُنْ بِي قُدْرَةٌ عَلَى أَكْلِ مَا خَشَنَ مِنَ الطَّعَامِ، مِمَّا كُنْتُ أَقْنَعُ بِهِ فِي أَيَّامِ شَبَابِي. فَقَدْ ضَعُفَتْ أَسْنَانِي عَنِ الْقَضْمِ (تَكْسِيرِ الْيَابِسِ مِنَ الطَّعَامِ)، فَلَمْ تَعُدْ تَقْوَى عَلَى طَحْنِ مَا أَكَلُهُ، كَمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلُ. وَأَبْغَضْتُ النَّاسَ، وَعَافَنْتُهُمْ نَفْسِي (كَرِهْتُهُمْ)، فَأَثَرْتُ (اخْتَرْتُ) الْبُعْدَ عَنْهُمْ، بَعْدَ مَا لَقِيتُهُ مِنْ فُنُونِ الْأَدِيَّةِ وَنِسْيَانِ الْحُقُوقِ، وَضُرُوبِ الْعُقُوقِ (صُنُوفِ الْعِصْيَانِ، وَالِاسْتِخْفَافِ، وَتَرَكَ الشَّفَقَةَ).

(١٠) خَاتِمَةُ الْأَلَامِ

فَقُلْتُ لَهُ: «لَيْسَ كُلُّ النَّاسِ أَشْرَارًا كَمَا تَظُنُّ. وَسَتَرَى فِي هَذِهِ الدَّسْكَرَةِ (الضَّيْعَةِ)، أَقْصَى مَا تَصْبُو (غَايَةَ مَا تَمِيلُ) إِلَيْهِ نَفْسُكَ مِنْ أَلْوَانِ التَّكْرِيمِ وَحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ.

كُنْ عَلَى ثِقَةٍ — يَا أَبَا زِيَادٍ — أَنْكَ لَنْ تُضْرَبَ بَعْدَ الْيَوْمِ، وَلَنْ تَلْقَى إِلَّا خَيْرًا. فَإِنَّ جَمِيعَ الدَّوَابِّ الَّتِي تَقْطُنُ (تَسْكُنُ) فِي هَذِهِ الضَّيْعَةِ (الْأَرْضِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي تُنْبِتُ الْغُلَاتِ) تَعْمَلُ أَحْسَنَ مُعَامَلَةٍ. فَهَوْنٌ عَلَيْكَ فَلَنْ تَلْقَى مَعَنَا إِلَّا مَا تَطِيبُ بِهِ نَفْسَكَ، وَيَزِيدُكَ خَاطِرُكَ (قَلْبُكَ).»

فَقَالَ «أَبُو زِيَادٍ» وَالشَّكُّ يُسَاوِرُهُ (يُغَالِبُهُ): «أَتَظُنُّنَّ أَنَّهُ سَيُسَمَّحُ لِي بِالْبَقَاءِ إِلَى جَوَارِكُمْ مَعَ مَا تَرَيْنَ مِنْ عَجْزِي عَنْ أَدَاءِ أَيِّ عَمَلٍ؟»

(١١) الْفَرَسُ الْعَجُوزُ

فَأَجَبَتْهُ: «نَعَمْ، فَإِنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الضَّيْعَةِ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَتْرَكَكَ نَهَبُ الْجُوعِ وَالْبَرْدِ (فَرِيَسَةً لَهُمَا)، وَلَنْ يُسَلِّمَكَ إِلَى الرَّدَى (الْمَوْتِ) إِلَّا حَتْفَ أَنْفِكَ (مَوْتًا طَبِيعِيًّا)، مَتَى حَانَ حَيْنُكَ (مَتَى جَاءَ أَجْلُكَ).»

كُنْ وَاثِقًا مِمَّا أَقُولُ. فَإِنَّ فِي دَسْكَرَتِنَا (ضَيْعَتِنَا) هَذِهِ فَرَسًا عَجُوزًا، اسْمُهَا «سَبَلٌ»، قَدْ أَعْجَزَتْهَا الشَّيْخُوخَةُ عَنِ الْعَمَلِ، بَعْدَ أَنْ بَلَغَتْ أَرْذَلَ الْعُمُرِ، وَنَاهَزَتْ سِنُّهَا السَّادِسَةَ وَالْعِشْرِينَ. وَهِيَ سَعِيدَةٌ بِالْكُونِ مَعَنَا، وَالْبَقَاءِ إِلَى جَانِبِنَا؛ وَقَدْ هَامَ الْأَطْفَالُ بِحُبِّهَا، وَالْفُؤَا (تَعَوَّدُوا) رُكُوبَهَا كُلَّمَا أَتَا حَتَّ لَهُمُ الْفَرَسُ لِقَاءَهَا. وَهِيَ أَلِيفَةٌ وَادِعَةٌ (سَاكِنةٌ هَادِئَةٌ) لَا تُؤْذِي أَحَدًا مِنْهُمْ، بَلْ تُبَادِلُهُمُ الْمَحَبَّةَ، وَتُصَفِّيهِمُ الْوِدَادَ (تُخْلِصُ فِي حُبِّهِمْ).»

الفصل السادس

قصة أبي تُولبٍ

(١) حديث دهمان

فَارْتَاخَتْ نَفْسُ «أَبِي زِيَادٍ» لِمَا سَمِعَ، وَاطْمَأَنَّ بِأَلْهِ، بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ الصَّدَقَ فِيمَا حَدَّثَتْهُ بِهِ. ثُمَّ قَالَ لِي وَقَدْ شَاعَتِ الْبُهْجَةُ فِي قَلْبِهِ، وَلَاخَتْ السَّعَادَةُ عَلَى مَلَامِحِهِ. «لَقَدْ وَعَدْتَنِي — يَا أُمَّ سَوَادَةَ — أَنْ تُحَدِّثَنِي بِمَا قَصَّهَ عَلَيْكَ صَاحِبُكَ «دَهْمَانُ» مِنْ أَخْبَارِ أُخْيَانَا «أَبِي تُولبٍ». وَلَعَلَّكَ مُنْجِزَةٌ وَعْدِكَ الْآنَ، فَإِنَّ خَيْرَ الْبَرِّ عَاجِلُهُ». فَأَنْشَأَتْ «قَسَامَةُ» تَقْصُّ عَلَى «أَبِي زِيَادٍ» أَخْبَارَ «أَبِي تُولبٍ» وَرِحْلَاتِهِ الْمُعْجِبَةَ. قَالَتْ:

(٢) نشأة أبي تُولبٍ

حَدَّثَنِي «دَهْمَانُ» عَنْ «أَبِي تُولبٍ» أَنَّهُ قَالَ: «نَشَأْتُ — أَوَّلَ مَا نَشَأْتُ — فِي بَيْتِ «أُمِّ عَرَبِدَ» وَهِيَ سَيِّدَةُ نَصَفٍ (امْرَأَةٌ وَسَطُ بَيْنِ الْحَدَثَةِ وَالْمُسِنَّةِ)، تُنَاهِزُ (تُقَارِبُ) الْخَامِسَةَ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمرِهَا. وَكَانَ لَهَا حَدِيقَةٌ صَغِيرَةٌ، وَبَقَرَةٌ سَمِينَةٌ تُكْنَى «أُمُّ وَالْبَةِ»، وَجَمْهَرَةٌ مِنَ الدَّجَاجِ. وَقَدْ جَمَعْتُ بَيْنَ الزَّرَاعَةِ وَالتَّجَارَةِ، فَكَانَتْ تَسْتَخْرِجُ — مِنْ لَبَنِ بَقَرَتِهَا — الْجُبْنَ وَالْقَشْدَةَ، وَمِنْ حَدِيقَتِهَا الْخَضَرَ وَالْفَاكِهَةَ، وَمِنْ دَجَاجِهَا الْبَيْضَ.

(٣) بَدْءُ الْكَرَاهِيَةِ

وَكَانَتْ «أُمُّ عَرَبِدَ» (وَالْعَرَبِدُ مَعْنَاهُ: الْحَيَّةُ) تَضَعُ كُلَّ طَائِفَةٍ — مِنْ هَذَا — فِي مِسْنَةٍ أَوْ سَلَةٍ، ثُمَّ تَتَقَلُّ ظَهْرِي بِمَا لَا أَطِيقُ حَمْلَهُ. وَلَا تَكْتَفِي بِذَلِكَ، بَلْ تَجْمَعُ — إِلَى ثِقَلِ هَذِهِ السَّلَالِ — ثِقَلَ جِسْمِهَا السَّمِينِ. ثُمَّ تَأْمُرُنِي بِالذَّهَابِ إِلَى السُّوقِ — وَهُوَ عَلَى مَسَافَةٍ طَوِيلَةٍ مِنْ بَيْتِهَا — وَفِي يَدِهَا عَصَا طَوِيلَةً لَا تَفْتَأُ تُلَوِّحُ بِهَا، بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ، ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَهْوِي بِهَا عَلَى جَسَدِي بِلاَ مُسَوِّغٍ. وَهِيَ تَظُنُّ أَنَّهَا تَسْتَحِقُّنِي عَلَى مُضَاعَفَةِ الْجُهِدِ، وَالْإِسْرَاعِ فِي الْعَدُوِّ (الْجَرِيِّ)، فَلَا يَزِيدُنِي ذَلِكَ إِلَّا حَقْدًا عَلَيْهَا وَغَيْظًا مِنْهَا.

(٤) نَتِيجَةُ الْقَسْوَةِ

وَمَتَى حَقَدَ الْحِمَارُ عَلَى صَاحِبِهِ، تَفَنَّنَ فِي مُعَاكَسَتِهِ، فَكَادَ عَنِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ (الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ)، وَلَمْ يَأَلُ جُهْدًا (لَمْ يَقْصُرْ) فِي مُضَايَقَتِهِ، وَتَنَغِيصِ عَيْشِهِ. وَكَذَلِكَ فَعَلْتُ. فَعَمَدْتُ (قَصَدْتُ) أَنْ أُعَرِّجَ بِهَا (أَمِيلُ بِهَا مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ)، يَمَنَةً وَيَسْرَةً. وَهِيَ تُحَاوِلُ بَعْصَاهَا أَنْ تُصْلِحَ مَا فَسَدَ مِنْ أَمْرِي، فَلَا أَزْدَادُ — عَلَى الضَّرْبِ — إِلَّا عِنَادًا وَجِرَانًا، أَعْنِي: أَنَّنِي كُنْتُ أَقِفُ وَلَا أَنْقَادُ لَهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ.

(٥) نَتِيجَةُ الْبُخْلِ

وَكَانَتْ «أُمُّ عَرَبِدَ»: تِلْكَ السَّيِّدَةُ النِّصْفُ — إِلَى قَسَوَتِهَا — شَدِيدَةُ التَّقْتِيرِ (الْبُخْلِ)، فَلَا تُعْطِينِي مِنَ الْغِذَاءِ إِلَّا مِقْدَارَ مَا يَقِيمُ أَوْدِي (يُزِيلُ تَعَبِي)، مَعَ أَنَّهَا فِي سَعَةٍ مِنَ الرِّزْقِ، وَخَفِضَ (لَيْنَ) مِنَ الْعَيْشِ. فَتَرَبَّصْتُ (انْتَظَرْتُ) بِهَا الدَّوَائِرَ، وَتَحَفَّزْتُ (تَهَيَّأْتُ لِلْوُثُوبِ) رَغْبَةً فِي الْإِنْتِقَامِ.

وَذَاتَ يَوْمٍ، نَسِيتُ أَنْ تَسْقِينِي وَتُطْعِمَنِي، مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى وَقْتِ الظُّهْرِ. فَلَمْ تَكَدْ تَبْنَعُدْ عَنِّي — وَكُنَّا قَدْ بَلَّغْنَا السُّوقَ — وَتَذْهَبُ لِبَعْضِ شَأْنِهَا، حَتَّى دَفَعَنِي الْجُوعُ وَالظَّمَأُ إِلَى مِسْنَةِ الْخَضِرِ. فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهَا مُضْطَرًّا، وَأَكَلْتُ مَا تَحْوِيهِ مِنْ لَذِيزِ الْكَرْنَبِ.

وَلَمْ أَكْذُ أَنْتَهِيَ مِنَ الْكُرْبَةِ الْأَخِيرَةِ حَتَّى عَادَتْ «أُمُّ عَرِبِد» فَلَمَّا رَأَتْ مَا حَلَّ بِهَا مِنَ الْخَسَارَةِ، صَرَخَتْ مُوَلِّوَةً، كَأَنَّمَا لَدَعَتْهَا ذَاتُ الْفَقَارِ (الْعُقْرَبُ) بِزُبَانِهَا (وَالزُّبَانُ: قَرْنُ الْعُقْرَبِ) وَأَسْرَعَتْ «أُمُّ عَرِبِد» إِلَيَّ تَتَوَعَّدُنِي بِالْوَيْلِ، وَتُنذِرُنِي بِالْهَلَاكِ.

(٦) عِقَابُ اللَّئِيمِ

وَاشْتَدَّتْ حَيْرَتِي وَارْتِبَاكِي حِينَ رَأَيْتُهَا مُقْبِلَةً عَلَيَّ بِعَصَا غَلِيظَةٍ، وَهِيَ تَنْهَالُ (تَتَابَعُ) عَلَيَّ ضَرْبًا وَشَتْمًا، وَتُقَسِّمُ لَتَقْتُلَنِي جَزَاءَ مَا افْتَرَقْتُ مِنْ إِيَّاهُ (ذَنْبٍ) كَبِيرٍ، وَتَكِيلُ — مِنْ السَّبَابِ وَالشَّتَائِمِ وَعِبَارَاتِ التَّحْقِيرِ لِي وَلِأَبْنَاءِ جَنْسِي الْأَقْرَبِينَ وَالْأَبْعَدِينَ — مَا لَمْ يَكُنْ لِيَدُورَ لِي عَلَى بَالٍ.

فَذَكَرْتُ — حِينَئِذٍ — كَلَامًا سَمِعْتُهُ مِنْ صَدِيقٍ لَوْلَدٍ هَذِهِ السَّيِّدَةِ، اسْمُهُ: «هَشَامٌ» وَهُوَ طَالِبٌ مِنْ أَدْكِيَاءِ الطُّلَابِ. وَلَسْتُ أَغَالِي إِذَا قُلْتُ: إِنَّهُ أَذْكَى مِنْ كَثِيرٍ مِنْ نَجَبَاءِ الْحَمِيرِ الَّذِينَ عَرَفْتُهُمْ فِي حَيَاتِي. وَكَانَ هَذَا الطَّالِبُ يَتْلُو كَلَامًا جَمِيلًا مِنْ كِتَابِ الْمَحْفُوظَاتِ، وَيُنْشِئُهُ مُعْجَبًا بِمَعْنَاهُ، حَتَّى رَوَيْتُهُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ مِنْهُ، وَهُوَ قَوْلُ «الْمُتَنَبِّي»: أَحَدِ حُكَمَاءِ الْإِنْسِ وَشُعْرَائِهِمُ الْمُجِيدِينَ:

«إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا»

(٧) نَمْنُ الْجُحُودِ

فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنَ الدَّفَاعِ عَنِ نَفْسِي، وَالْإِنْتِقَامِ مِنْ «أُمِّ عَرِبِد» لِمَا أَلْحَقَتْهُ مِنَ الْإِهَانَةِ بِأَبْنَاءِ جَنْسِي. وَرَفَسْتُهَا رَفْسَةً قَدَفْتُ بِهَا إِلَى الْأَرْضِ، وَأَلْقَتْ بِهَا فِي غَيْبُوبَةٍ. مَا أَحْسَبُهَا أَفَاقَتْ مِنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ. وَكَانَ هَذَا جَزَاءً وَفَاقًا. فَلَوْ أَنَّهَا شَكَرَتْ لِي حُسْنَ خِدْمَتِي، وَلَمْ تَنْسَ أَنْ تُقَدِّمَ لِي طَعَامِي وَشَرَابِي، لَطَلَلْتُ لَهَا — مَا حَيِيْتُ — عَبْدًا شُكُورًا.

(٨) فِي الْمَحَفَّةِ

وَاشْتَغَلَ مَنْ فِي السُّوقِ بِإِسْعَافِ «أُمِّ عَرِيدٍ». وَرَأَيْتُهَا فُرْصَةً لِلْهُرُوبِ، وَمَا زِلْتُ أَجْرِي حَتَّى بَلَغْتُ الدَّارَ. فَاسْتَقْبَلَنِي أَبْنَاؤُهَا وَرَوْجُهَا مَدْهُوشِينَ. وَنِسَاءُ لَهَا عَمَّا لِحَقَّ بِصَاحِبَتِي، وَكَيْفَ رَجَعْتُ بِغَيْرِهَا. وَانْقَسَمَتْ أَرَاؤُهُمْ — فِي أَمْرِي — وَاخْتَلَفَتْ! وَبَعْدَ قَلِيلٍ رَأَوُا صَاحِبَتِي وَهِيَ فِي حَالٍ يُرَى لَهَا مِنَ الْأَلَمِ وَالضَّعْفِ، وَقَدْ حُمِلَتْ فِي مَحَفَّةٍ (وَالْمَحَفَّةُ: مَرْكَبٌ لِلنِّسَاءِ كَالْهُودَجِ، إِلَّا أَنَّهَا لَا قُبَّةَ لَهَا). وَسَمِعْتُ أَوْلَادَهَا يَتَوَعَّدُونَنِي بِالْقَتْلِ. وَكَانَ أَبُوهُمْ يَقُولُ لَهُمْ: «عَاقِبُوهُ كَمَا تَشَاؤُونَ. وَلَكِنْ احْذَرُوا أَنْ تَقْتُلُوهُ. وَإِلَّا ضَاعَ تَمَنُّهُ عَلَيْنَا بِلَا طَائِلٍ (بِغَيْرِ فَائِدَةٍ)».

(٩) فِي الْغَابَةِ

فَرَأَيْتُ الْحَزَمَ فِي الْفَرَارِ. وَمَا زِلْتُ أَعْدُو (أَجْرِي) — جُهْدَ طَاقَتِي — حَتَّى غِثْتُ عَنْ أَبْصَارِهِمْ. فَلَمَّا اطْمَأْنَنْتُ إِلَى السَّلَامَةِ، وَأَمَنْتُ شُرُورَهُمْ وَأَذِيَّتَهُمْ، وَاصَلْتُ السَّيْرَ حَتَّى بَلَغْتُ أَجْمَةً فِيهَا جَدُولٌ صَافٍ مِنَ الْمَاءِ. فَأَكَلْتُ مِنْ حَشَائِشِ الْأَرْضِ، وَشَرِبْتُ مِنْ مَائِهَا النِّمِيرِ (النَّاجِغِ الرَّائِي). ثُمَّ أَسْلَمْتُ أَجْفَانِي لِلنَّوْمِ حَتَّى لَاحَ (ظَهَرَ) الْفَجْرُ.

(١٠) بَنَاتُ وَازِعٍ

فَشَعَرْتُ — فِي هَذِهِ الْغَابَةِ — بِالطَّمَأْنِينَةِ بَعْدَ أَنْ أَمِنْتُ أَذِيَّةَ تِلْكَ الْأُسْرَةِ الْقَاسِيَةِ الْقُلُوبِ، وَلَمْ يَدْرُ بِخَلْدِي (لَمْ يَخْطُرْ بِيَالِي) أَنَّ كِلَابَهَا قَدْ اقْتَفَنَنِي (تَتَبَعَنَنِي) وَاهْتَدَتْ بِأَثَارِ أَقْدَامِي إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَمَّمْتُهُ (قَصَدْتُهُ) فَلَمَّا سَمِعْتُ نُبَاحَهَا أَذْرَكْتُ الْخَطَرَ الَّذِي يَدْهَمُنِي (يَغْشَانِي) إِذَا تَلَكَّأْتُ (أَبْطَأْتُ وَتَوَقَّفْتُ) فِي الْهَرَبِ. فَاسْرَعْتُ إِلَى جَدُولٍ قَرِيبٍ مِنَ الْغَابَةِ، فَسَبَحْتُ (عُمْتُ) فِيهِ حَتَّى تَنْقَطِعَ آثَارُ أَقْدَامِي، فَلَا يَهْتَدِي قَصَاصُو الْأَثَرِ إِلَيْهَا. وَسَمِعْتُ صَوْتَ أَبْنَاءِ «أُمِّ عَرِيدٍ» وَهُمْ يَتَصَايَحُونَ غَاضِبِينَ، وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ لِلْكَلابِ: «هَلُمَّ — يَا بَنَاتُ وَازِعٍ — فَمَرِّقْنَ لَحْمَ حِمَارِنَا الشَّرِيسِ الْأَثِيمِ (الْمُذْنِبِ)، وَأَحْضِرْنَهُ إِلَيَّ لِأَرْوِي دِرَّتِي (سَوْطِي) مِنْ دَمِهِ، جَزَاءَ مَا اقْتَرَفَ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ».



(١١) اِخْتِلَافُ الظُّنُونِ

فَتَأَكَّدَ (ثَبَّتَ) لِي — حِينَئِذٍ — أَنَّ أَحْقَادَهُمْ عَلَيَّ لَا تَزَالُ نَامِيَّةً، وَأَنَّهُمْ لَنْ يَقْنَعُوا — فِي مُعَاقِبَتِي — بِغَيْرِ إِهْلَاكِ وَتَقْطِيعِ أَوْصَالِي. فَحَفَرَنِي ذَلِكَ إِلَى مُضَاعَفَةِ جُهِدِي فِي السَّبَاحَةِ. وَمَا زِلْتُ سَابِحًا حَتَّى انْقَطَعَتْ أَصْوَاتُ الْكِلَابِ، وَأَصْبَحْتُ بِمَأْمِنٍ مِنْ غَدَرِهِمْ وَتَنَكُّيلِهِمْ بِي. فَخَرَجْتُ مِنَ الْقَنَازَةِ، ثُمَّ وَاصَلْتُ السَّيْرَ عَلَى الشَّطِّ الْآخِرِ مِنْهَا حَتَّى بَلَغْتُ مَرَجًا فَسِيحًا، فِيهِ مَرْعَى خَصِيبٌ حَافِلٌ بِالْبَرْسيمِ الشَّهِيِّ. وَقَدْ عَدَدْتُ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ ثَوْرًا تَرْعَى فِيهِ. فَانْتَحَيْتُ جَانِبًا مِنْهُ وَأَكَلْتُ مَا شِئْتُ، حَتَّى — إِذَا حَلَّ الْمَسَاءُ — سَمِعْتُ رَجُلًا يُحَدِّثُ صَاحِبَهُ مِنْ تَرْكِ الثَّيْرَانِ فِي الْعَرَاءِ (فِي الْخَلَاءِ)، حَتَّى لَا تَتَعَرَّضَ لِحَاطِرِ الذَّنَابِ الَّتِي افْتَرَسَتْ حِمَارَ «أُمِّ عَرَبِدَ».

وَسَمِعْتُ الْآخَرَ يَقُولُ لَهُ: «لَقَدْ عِشْتُ عُمْرًا طَوِيلًا فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ فَلَمْ أَسْمَعْ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ دَخَلَهَا، وَمَا أَظُنُّ إِلَّا أَنْ أَوْلَدَ «أُمُّ عَرَبِدَ» قَتَلُوهُ — انْتِقَامًا لِأَمِّهِمْ مِنْهُ — ثُمَّ أَذَاعُوا بَيْنَ الْمَلَأِ أَنَّ الذَّنَابَ قَدْ حَطِفَتْهُ.»

فَرَاذَنِي هَذَا الْحَدِيثُ أَطْمَئِنَّا، لِأَنَّنِي — فِيمَا أَعْلَمُ — أَخْبَرْتُ وَأَعْرِفُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، بِأَنَّ حِمَارَ «أُمِّ عَرَبِدَ» لَا يَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الذَّنَابَ لَمْ تَرَهُ وَلَمْ يَرَهَا، وَلَا عَرَفْتَهُ وَلَا عَرَفَهَا قَطُّ.

(١٢) فِي حَقْلِ الْبَرْسِيمِ

وَهَكَذَا نَمْتُ فِي حَقْلِ الْبَرْسِيمِ الْعَالِي، وَأَسْلَمْتُ جَفَنِي لِلْكَرَى (أَغْمَضْتُ عَيْنِي لِلنَّوْمِ). وَقَدْ أَخَفَّتَنِي عِيدَانُ الْبَرْسِيمِ الطَّوِيلَةُ عَنْ كُلِّ عَيْنٍ.

وَمَا زِلْتُ نَائِمًا حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ. فَاسْتَيْقَظْتُ — وَمَا كِدْتُ أَتِمُّ فَطُورِي — حَتَّى سَمِعْتُ نَبَاحًا يَنْبَعُثُ مِنْ كِلَابِ الْخَفَرِ الَّتِي تَحْرُسُ الثِّيْرَانَ فِي أَثْنَاءِ رَعِيهَا. وَكَانَتْ الثِّيْرَانُ قَدْ خَرَجَتْ مِنْ حَظِيرَتِهَا. وَخَشِيتُ أَنْ أُعْرِضَ نَفْسِي لِمَا لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ! فَانْسَلَلْتُ مُسْتَخْفِيًا حَتَّى بَلَغْتُ غَابَةَ بَعِيدَةً عَنْ هَذَا الْمَرْجِ الْخَصِيبِ، حَيْثُ بَقِيتُ نَاعِمَ الْبَالِ، أَكْثَرَ مِنْ شَهْرٍ مِنَ الزَّمَانِ.

(١٣) الْعَجُوزُ الْوَادِعَةُ

وَجَاءَ فَصْلُ الْبَرْدِ، فَجَفَّتِ الْحَشَائِشُ الْمُخْضَرَّةُ، وَغَاضَ الْمَاءُ (قَلَّ وَنَقَصَ)، وَأَصْبَحْتُ مُعْرِضًا لِأَخْطَارِ الْجُوعِ وَالْطَّمَأِ وَالْبَرْدِ. وَشَعَرْتُ بِوَحْشَةِ الْعُرْزَةِ، وَسَيِّمْتُ الْوَحْدَةَ، فَانْتَرْتُ (اخْتَرْتُ) الذَّهَابَ إِلَى الْقَرْيِ، وَالتَّعَرَّضُ لِأَذْيَةِ النَّاسِ وَمَكَايِدِهِمْ، عَلَى الْهَلَاكِ جُوعًا وَعَطْشًا فِي تِلْكَ الْغَابَةِ النَّائِيَةِ (الْبَعِيدَةِ).

فَدَهَبْتُ أَغْتَسِفُ (أَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ عَلَى غَيْرِ هُدًى) حَتَّى بَلَغْتُ إِحْدَى الْقَرْيِ. فَرَأَيْتُ عَجُوزًا جَالِسَةً أَمَامَ دَارِهَا — وَهِيَ تَغْزُلُ — وَقَدْ بَدَتْ عَلَى سِيَمَاهَا (مَرَأَهَا) أَمَارَاتُ الْوَادَاعَةِ وَطِيبِ النَّفْسِ. فَيَمَّمْتُ (قَصَدْتُ) نَحْوَهَا، حَتَّى إِذَا دَانَيْتُهَا (قَارَبْتُهَا) وَضَعْتُ رَأْسِي عَلَى كَتِفِهَا. فَظَهَرَ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنَ الْخَوْفِ، وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا أَطْمَأْنَنْتُ وَأَخْلَدْتُ إِلَيَّ

بِالثَّغَةِ، حِينَ رَأَيْتَنِي سَاكِنًا هَادِتًا. فَتَبَدَّلَ ارْتِيَابُهَا (شَكُّهَا) ثِقَةً، وَخَوْفُهَا اطمِنَانًا، وَأَقْبَلَتْ عَلَيَّ تَوْسِينِي (تُوصِينِي بِالصَّبْرِ) وَتُرَبَّتْ وَجْهِي قَائِلَةً: «لَقَدْ شَاخَ حِمَارِي «دُكَيْنٌ» وَأَسْلَمَتْهُ الشَّيْخُوحَةُ إِلَى الْهَلَاكِ، فَمَاتَ مَأْسُوفًا عَلَيْهِ، وَتَعَطَّلَتْ أَعْمَالِي مُنْذُ أَيَّامٍ، فَلَمْ أَسْتَطِعِ الذَّهَابَ إِلَى السُّوقِ، لِبَيْعِ مَا لَدَيَّ مِنَ الْخَضِرِ وَالْبَيْضِ وَالزُّبْدِ. وَلَكِنْ رَحِمَهُ اللَّهُ وَلُطْفَهُ أَدْرَكَانِي، فَبَعْنَا إِلَيَّ بِهَذَا الْحِمَارِ الْوَدِيعِ، فَلَابَحَثُ أَوَّلًا عَنْ أَصْحَابِهِ لِأَشْتَرِيَهُ مِنْهُمْ، وَإِلَّا أَبْقَيْتُهُ عِنْدِي حَتَّى أَهْتَدِيَ إِلَى مَالِكِيهِ».

(١٤) مُدَاعَبَةُ الْحَفِيدِ

وَكَاثَمَا سَمِعَ حَفِيدُهَا شَيْئًا مِنْ حَدِيثِهَا مَعِي، فَخَرَجَ مِنَ الدَّارِ يَسْأَلُهَا عَنْ أَمْرِي، فَأَخْبَرَتْهُ بِجَلِيَّةِ الْأَمْرِ (بِحَقِيقَةِ الْخَيْرِ). وَكَانَ الطِّفْلُ فِي السَّابِعَةِ مِنْ عُمْرِهِ، فَاسْتَأْذَنَ جَدَّتَهُ فِي مُدَاعَبَتِي (مُمَارَاةٍ) فَقَالَتْ لَهُ: «يَطْهَرُ أَنَّهُ حِمَارٌ وَدِيعٌ، وَلَكِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ الْاِطْمِنَانُ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ نَجَرِّبَهُ» فَاقْتَرَبْتُ مِنَ الطِّفْلِ، وَلَحَسْتُ يَدَهُ مُتَرَفِّقًا وَلَبِثْتُ — حَيْثُ أَنَا — سَاكِنًا لَا أَتَحَرَّكُ. فَازْدَادَ اِطْمِنَانُ الْجَدَّةِ وَحَفِيدِهَا إِلَيَّ.

(١٥) السُّنُونُ الْأَرْبَعُ

ثُمَّ قَالَتِ الْجَدَّةُ لِحَفِيدِهَا «عِصَامُ»: «اذْهَبْ إِلَى السُّوقِ وَطُفْ بِهِ أَرْجَاءَ الْقَرْيَةِ (نَوَاحِيهَا) وَبُيُوتِهَا. فَإِنْ كَانَ لَهُ صَاحِبٌ فَسَلِّمْهُ إِلَيْهِ، وَإِلَّا فَعُدْ (ارْجِعْ) بِهِ إِلَيْنَا، لِنَرَى مَاذَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِ!»

فَمَشَى «عِصَامُ» أَمَامِي، وَمَشَيْتُ خَلْفَهُ. ثُمَّ حَلَا لَهُ الرُّكُوبُ، فَلَمْ يَجِدْ مِنِّي غَيْرَ الْوَدَاعَةِ. وَطَافَ بِي أَنْحَاءَ الْقَرْيَةِ، وَسَأَلَ كُلَّ مَنْ فِيهَا، فَلَمْ يَعُثُرْ لِي عَلَى صَاحِبٍ. وَبَقِيتُ عِنْدَهُمْ نَحْوَ سَنَوَاتٍ أَرْبَعٍ. وَقَدْ سَعِدْتُ بِهِمْ — كَمَا سَعِدُوا بِي — وَقَنِعْتُ مِنْ زَادِهِمْ — فِي الصَّيْفِ — بِمَا لَدَيْهِمْ مِنَ الْفَضْلَاتِ الَّتِي لَا يَأْكُلُهَا الْبَقَرُ وَالْخَيْلُ: مِنَ الْحَشَائِشِ وَقُشُورِ الْخَضِرِ. وَفِي الشِّتَاءِ بِحَفْنٍ مِنَ الشَّعِيرِ، أَظْفَرُ بِهَا حَفْنَةً بَعْدَ أُخْرَى (وَالْحَفْنَةُ: مِلءُ الْكَفِّ)، وَأَشْتَاتٍ مِنْ وَرَقِ الْكُرْنَبِ، وَبَقَايَا مَا يَسْتَعْنُونَ عَنْهُ، مِنْ قَشْرِ الْبَطَاطِيسِ وَالْكُرَاتِ؛ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ النِّفَايَاتِ (مِنْ رَدِيءِ الْأَشْيَاءِ).

وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَا أَشْكُوهُ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ إِلَّا شَيْءٌ وَاحِدٌ، هُوَ: اضْطِرَارُّ سَيِّدَتِي — بِسَبَبِ فَقْرِهَا — إِلَى أَنْ تُعِيرَنِي لِبَعْضِ الصَّبِيَّةِ، لِيَتَنَزَّهُوا فِي مُقَابَلَةِ مَا يَدْفَعُونَ لَهَا مِنَ الْأَجْرِ. وَلَقَدْ لَقِيتُ مِنْ بَعْضِهِمْ شَيْئًا مِنَ الْإِعْنَاتِ (الْمَشَقَّةِ وَالْجُهْدِ وَالشَّدَةِ) بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ.

(١٦) الْجِسْرُ الْمُتَهَدِّمُ

وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ يَوْمًا اسْتَأْجَرَنِي — مَعَ خَمْسَةِ مِنْ رِفَاقِي (صَحَابِي) — سِتَّةَ أَوْلَادٍ، لِيَتَنَزَّهُوا بِنَا فِي الْحُقُولِ وَالْمَرَاعِي. وَتَسَابَقْنَا، فَكُنْتُ أَسْبَقُ الصَّحَابَ، وَأُسْرِعُهُنَّ جَرِيًّا، حَتَّى بَلَّغْنَا جِسْرًا مُتَدَاعِيًا (مُتَهَدِّمًا)، فَوَقَفْتُ عَنِ السَّيْرِ حَتَّى لَا أَهْوِي (لَا أَسْقُطَ) بِرَاكِبِي فِي الْمَاءِ. فَأَنْهَالَ عَلَى ذَلِكَ الصَّبِيِّ الْغَبِيِّ بَعْصَاهُ يَسْتَحِثُّنِي (يَسْتَعْجِلُنِي) بِهَا عَلَى السَّيْرِ، فَلَمْ أَزِدْ إِلَّا حُرُونًا. وَحَاوَلْتُ أَنْ أُعْبِرَ لَهُمْ عَنِ الْخَطَرِ الَّذِي يَعْرِضُونَ لَهُ، فَتَهَقَّتْ، وَهَزَزْتُ رَأْسِي وَذَيْلِي، وَدَبَبْتُ بِقَوَائِمِي عَلَى الْأَرْضِ، وَقَفَزْتُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ فِي الْهَوَاءِ. فَلَمْ يَفْطَنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا أُرِيدُ، وَلَمْ يَفْهَمُوا عَنِي — لِغَبَاوَتِهِمْ — مَا كُنْتُ أَعْنِيهِ (أَقْصِدُهُ).

(١٧) نَجَاةُ الْغَرِيقِ

عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ تَكْشَفُوا غَفْلَتَهُمْ وَخَطَأَهُمْ، حِينَ انْدَفَعَ بِحِمَارِهِ طِفْلٌ غَبِيٌّ مِنْهُمْ اسْمُهُ «الْوُكُوكُ» لِيَجْتَازَ الْجِسْرَ. وَلَمْ يَكِدْ يَفْعَلْ حَتَّى هَوَى (سَقَطَ) بِهِ إِلَى الْمَاءِ. فَسَبَحَ (عَامَ) الْحِمَارُ حَتَّى بَلَغَ الشَّاطِئَ، وَأَشْرَفَ الصَّبِيُّ عَلَى الْغَرَقِ. وَصَاحَ الْأَوْلَادُ مَدْعُورِينَ (خَائِفِينَ)، وَحَاوَلُوا إِنْقَاذَ «الْوُكُوكِ» جَاهِدِينَ. وَكَانَ أَحَدُهُمْ — وَهُوَ ابْنُ صَيَّادٍ — يَحْمِلُ مَعَهُ — لِحْسَنَ الْحَظِّ — شَبَكَةَ الصَّيْدِ إِلَى أَبِيهِ، فَأَلْقَاهَا عَلَى «الْوُكُوكِ» وَرَاحَ يَجْذِبُهَا — مَعَ رِفَاقِهِ — لِيُنْقِذُوهُ مِنَ الْغَرَقِ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا. وَخَشِيتُ أَنْ يَغْرَقُوا مَعَهُ، فَنَحَيْتُهُمْ (صَرَفْتُهُمْ عَنْهُ). وَأُسْرِعْتُ إِلَيْهِ، فَشَدَدْتُ الشَّبَكَةَ بِأَسْنَانِي إِلَى الْبَرِّ.



(١٨) عَهْدٌ لَا يُنْسَى

فَأَدْرَكُوا بَعْدَ نَظَرِي حِينَ أَحْجَمْتُ عَنِ السَّيْرِ فَوْقَ ذَلِكَ الْجِسْرِ الْبَالِي، وَأَقْبَلُوا عَلَيَّ يَتَوَدَّدُونَ (يَتَحَبَّبُونَ) إِلَيَّ. مُعْتَذِرِينَ عَن فَرَطِ جَهَالَتِهِمْ (شِدَّةِ جَهْلِهِمْ). ذَلِكَ عَهْدٌ (زَمَنٌ) لَا أَنْسَاهُ. وَقَدْ مَرَّ بِي عَلَى عِلَاتِهِ (عَلَى كُلِّ حَالٍ) إِلَى غَيْرِ عَوْدَةٍ، كَمَا تَمُرُّ الْأَحْلَامُ.

(١٩) أَبْعَضُ الْأَيَّامِ

وَكَانَ وَالِدُ الطِّفْلِ: «عِصَامٌ» جُنْدِيًّا، فَلَمَّا عَادَ إِلَى بَيْتِهِ آثَرَ أَنْ يَنْتَقِلَ — بِأُسْرَتِهِ — مِنَ الرَّيْفِ إِلَى الْمَدِينَةِ. وَاضْطُرَّ — حِينَئِذٍ — إِلَى بَيْعِي لِبَعْضِ الْأَهْلِيْنَ. وَكَانَ صَاحِبِي الْجَدِيدُ يُرْهِقُنِي (يَحْمِلُنِي عَلَى مَا لَا أَطِيقُ)، وَيُكَلِّفُنِي مَا لَا أَسْتَطِيعُ، وَلَا يُبَالِي مَا أَنْوَأُ بِهِ (مَا يُعْجِزُنِي) مِنَ الْأَثْقَالِ.

فَتَارَةً أَحْمِلُ السَّمَادَ، وَمَرَّةً أَحْمِلُ أَكْدَاسًا لَا أَطِيقُ حَمْلَهَا مِنْ مِشْنَاتِ الْخَضَرِ وَالْبَيْضِ وَالْجُبْنِ — وَمَا إِلَى ذَلِكَ — لِبَيْعِهِ.

وَكَانَتْ أَيَّامُ السُّوقِ أَبْغَضَ أَيَّامِ حَيَاتِي، لِأَنَّ صَاحِبِي يَتْرُكُنِي - فِي أَثْنَائِهَا - بِلَا طَعَامٍ، مِنْ وَقْتِ الصَّبَاحِ إِلَى وَقْتِ الْأَصِيلِ، وَلَا يَذْكُرُنِي إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَبِيعَ كُلَّ مَا جَلَبَهُ (أَحْضَرَهُ).

(٢٠) فِي بَعْضِ الْحَفْرِ

وَكَانَ - فِي عُمْرِهِ (جُحُودِهِ) وَنُكْرَانِهِ لِلْجَمِيلِ، وَنِسْيَانِ حَقِّي عَلَيْهِ - يَذْكُرُنِي بِ«أُمِّ عَرَبٍ»: تِلْكَ السَّيِّدَةِ النَّصِيفِ الَّتِي أَسْلَفْتُ الْإِشَارَةَ إِلَيْهَا. فَاشْتَدَّ حَقْدِي عَلَى الرَّجُلِ الْأَثْنَانِي (الَّذِي لَا يُحِبُّ إِلَّا نَفْسَهُ)، وَزَهَدْتُ فِي خِدْمَتِهِ. فَدَبَّرْتُ - لِلْخُلَاصِ مِنَ الْعَنَاءِ (النَّعَبِ) - حُطَّةً بَارِعَةً، تُرِيحُنِي مِنَ الذَّهَابِ إِلَى السُّوقِ. فَلَمَّا دَنْتُ سَاعَةَ الْخُرُوجِ، تَخَيَّرْتُ حُفْرَةً وَاسِعَةً فِي مَكَانٍ قَصِي (بَعِيدٍ) مِنَ الْمَرْعَى، يَكْتَنِفُهَا (يُحِيطُ بِهَا) النَّبَاتُ، فَاخْتَبَأْتُ فِيهَا. وَحَاوَلَ الزَّارِعُ وَأَوْلَادُهُ وَأَقَارِبُهُ أَنْ يَهْتَدُوا إِلَى مَكَانِي، فَحَابَ سَعْيُهُمْ.

(٢١) حِوَارُ الْأُسْرَةِ

وَسَمِعْتُهُمْ يَتَحَاوَرُونَ (يُنَاقِشُونَ) فِي أَمْرِي. وَقَدْ حَسِبَ (ظَنَّ) صَاحِبِي أَنَّ لِصًّا سَرَقَنِي. وَخَشِيَ أَنْ تَضِيعَ مِنْهُ فُرْصَةُ السُّوقِ، فَشَدَّ إِلَى مَرْكَبَتِهِ فَرَسًا قَوِيًّا يُدْعَى «ذَا الْعُقَالِ». وَصَبَرْتُ سَاعَةً، ثُمَّ خَرَجْتُ مِنَ الْحُفْرَةِ، وَذَهَبْتُ مُيَمِّمًا (قَاصِدًا) الدَّارَ، حَتَّى دَانِيَتْهَا (قَرُبْتُ مِنْهَا)، فَنَهَقْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي. فَأَسْرَعَ إِلَيَّ مَنْ فِي الدَّارِ، وَفَرِحُوا بِخُلَاصِي مِنَ السَّارِقِ، وَأَقْبَلُوا عَلَيَّ مُبْتَهَجِينَ مُتَوَدِّدِينَ. وَلَمْ يَكُنْ سَيِّدُ الدَّسْكَرَةِ (صَاحِبُ الْمَرْزَعَةِ) يَعُودُ إِلَى دَارِهِ، حَتَّى أَفْضُوا إِلَيْهِ (أَخْبَرُوهُ) بِمَا عَرَفُوهُ مِنْ أَمْرِي. فَشَاعَتِ الْبُهْجَةُ (الْفَرَحُ) فِي نَفْسِهِ، وَتَطَلَّقَتْ أَسَارِيرُهُ (خُطُوطُ جَبِينِهِ)، وَبَحَثَ عَنْ كُلِّ نَفْرَةٍ فِي سِيَاحِ الدَّسْكَرَةِ (سُورِ الْمَرْزَعَةِ)، فَأَحْكَمَ سِدَادَهَا، حَتَّى لَا يَسْرِقَنِي اللَّصُّ مَرَّةً أُخْرَى.

(٢٢) بدء الشك

فَلَمَّا جَاءَ يَوْمُ السُّوقِ التَّالِيَةِ، اخْتَبَأْتُ فِي تِلْكَ الْحُفْرَةِ. وَأَعَادُوا بِحَنَّهُمْ عَنِّي — كَمَا فَعَلُوا فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ — فَلَمْ يَظْفَرُوا مِنْ بَحْنِهِمْ بِطَائِلٍ (لَمْ يَحْصُلُوا مِنْهُ عَلَى فَائِدَةٍ). فَأَيْقَنَ صَاحِبِي أَنَّي لَنْ أَعُودَ إِلَى الدَّارِ — بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ — وَقَالَ لِبَنِيهِ (لِأَوْلَادِهِ) وَأَهْلِيهِ، فِي لَهْجَةِ الْأَسَفِ الْحَزِينِ: «لَقَدْ أَفَلْتُ (هَرَبْتُ) مِنَ اللَّصِّ — فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى — فَتَرَبَّصْ بِهِ اللَّصُّ (انْتَظِرْ بِهِ، وَصَبِرْ عَلَيْهِ) حَتَّى أَوْقَعَهُ فِي حِبَالَتِهِ (شَبَكَتِهِ)، وَمَا أَظُنُّهُ يَنْجُو بَعْدَ ذَلِكَ أَبَدًا».

فَلَمَّا خَرَجْتُ مِنَ الْحُفْرَةِ، ظَلَلْتُ أَرْعَى الْحَشَائِشَ فِي الْمُرْعَةِ حَتَّى وَقَعْتُ أَبْصَارُهُمْ (أَنْظَرْتُهُمْ) عَلَيَّ، فَلَمْ يَهْشُوا إِلَيَّ — فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ — وَلَمْ يَبْشُوا (لَمْ يَفْرَحُوا). وَبَدَتْ الْحَيْرَةُ عَلَى سَيَمَاهُمْ (ظَهَرَتْ عَلَى مَرَاهِمُ) وَخَامَرَهُمُ الشُّكُّ فِي أَمْرِي، فَضَاعَفُوا مِنْ يَقْظَتِهِمْ، وَضَيَّقُوا عَلَيَّ بِمِرَاقِبَتِهِمْ حَتَّى لَا أُخَادِعَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

(٢٣) اقتضاح السر

فَلَمَّا جَاءَ يَوْمُ السُّوقِ، وَاخْتَبَأْتُ فِي الْحُفْرَةِ — عَلَى عَادَتِي — هَالَنِي (خَوَّفَنِي وَفَزَعَنِي) مَا سَمِعْتُهُ مِنْ صِيحَاتِ سَيِّدِي، وَمِنْ نُبَاحِ كَلْبِهِ، وَهُوَ يُغْرِيه بِي، وَيَحْفِرُهُ فِي أَتْرِي، وَيُوصِيهِ بِأَنْ يَمْزِقَ جِلْدِي وَلَحْمِي، حَتَّى يُخْرِجَنِي مِنَ الْحُفْرَةِ. وَرَأَيْتُ كَلْبَهُ: «ابْنُ وَازِعٍ» يَلْبِي أَمْرَهُ، فَيُنْجِي عَلَى جِسْمِي عَضًا وَتَمْزِيقًا فَلَمْ أَرِ بُدًّا (لَمْ أَجِدْ مَفْرَأًا) مِنَ الْخُرُوجِ.

(٢٤) عقاب الهارب

وَمَا كِدْتُ أَفْعَلُ، حَتَّى تَلَقَّانِي سَيِّدِي بِدِرَّتِهِ (ضَرَبَنِي بِسَوْطِهِ)، فَأَلْهَبَ جِسْمِي. وَلَمَّا شَفَى غَلِيلُهُ (غَيَّظُهُ) مِنِّي أَعَادَنِي إِلَى الزَّرِيبَةِ. وَسَاءَ ظَنُّهُ بِي — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — وَأَحْفَظُهُ عَلَيَّ مَا فَعَلْتُ (جَعَلَهُ يَحْقِدُ)، فَتَمَادَى (اسْتَمَرَّ) فِي إِهَانَتِي (إِذْلَالِي) وَتَحْقِيرِي وَالْإِزْرَاءِ بِي (تَنْقُصِي).

(٢٥) مُبَارَاةٌ فِي الْعِنَادِ

فَلَمْ يَزِدْنِي بِفُسُوتِهِ إِلَّا تَمَادِيًا فِي الْعِنَادِ وَالْغَيْظِ. فَأَجْمَعْتُ أَمْرِي عَلَى الْإِنْتِقَامِ. وَأَقْسَمْتُ
لَأَنْغَصَنَّ عَلَيْهِمْ عَيْشَهُمْ (لَأُكْذِرَنَّ حَيَاتَهُمْ) كَمَا نَعَّصُوا عَلَيَّ عَيْشِي، وَلَأَشْقِيَنَّهُمْ بِي كَمَا
أَشَقُونِي بِهِمْ (لَأَجْلِبَنَّ عَلَيْهِمُ الشَّقَاءَ، كَمَا جَلَبُوهُ عَلَيَّ). فَلَمْ أَتْرُكْ — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ —
فُرْصَةً تَسْنَحُ (تَعْرِضُ) لِلتَّنْكِيلِ بِهِمْ (لِإِيذَانِهِمْ) إِلَّا أَنْتَهَرْتُهَا، وَأَسْرَعْتُ إِلَيْهَا. فَلَمْ أَلْ جُهْدًا
فِي تَحْرِيبِ مَزْرَعَتِهِمْ وَافْسَادِ حَدِيقَتِهِمْ وَأَكْلِ شَجِيرَاتِهَا، وَالثَّمَامِ ثَمَرَاتِهَا، وَتَقْتِيلِ أَرَانِبِهَا
وَدَجَاجِهَا، وَرَفْسِ خَزَفَانِهَا وَنِعَاجِهَا، وَإِلْقَاءِ كُلِّ مَنْ يَرْكَبُنِي مِنْ أَطْفَالِهِمْ. حَتَّى ضَجِرُوا
بِي، وَيَبْتَئِسُوا مِنْ إِصْلَاحِي. فَلَمْ يَجِدُوا وَسِيلَةَ لِلْخَلَاصِ مِنْ شُرُورِي إِلَّا أَنْ يَبِيعُونِي،
وَيَشْتَرَوْا بِنَمْنِي حِمَارًا آخَرَ.

(٢٦) بِنْتُ السَّيِّدِ الْجَدِيدِ

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَحْسَنُوا مُعَامَلَتِي، وَضَاعَفُوا الْعِنَايَةَ بِأَمْرِي، فَمَنْحُونِي مِنَ الزَّادِ (الطَّعَامِ)
أَطْيَبَهُ، وَأَرَاخُونِي مِنْ عَنَاءِ الْعَمَلِ، حَتَّى يَضْمَنُوا ثَمَنًا كَثِيرًا حِينَ يَبِيعُونَنِي. وَلَمْ أَلْبَثْ
أَنْ اسْتَرَدَدْتُ (اسْتَرْجَعْتُ) قُوَّتِي، وَسَمِنْتُ بَعْدَ هُزَالٍ، وَقَوِيْتُ بَعْدَ ضَعْفٍ. فَكَفَفْتُ عَنْ
إِيذَانِهِمْ حَتَّى أَسْلَمُونِي إِلَى سَيِّدٍ آخَرَ.

وَكَانَ لِذَلِكَ السَّيِّدِ صَبِيَّةٌ جَمِيلَةٌ كَرِيمَةُ النَّفْسِ، يَنْطَبِقُ فِعْلُهَا عَلَى اسْمِهَا. فَقَدْ كَانَتْ
تُدْعَى «إِحْسَانًا»، وَلَوْ مُثَلَّ (لَوْ صُورَ) الْإِحْسَانُ شَخْصًا لَكَانَ إِيَّاهَا.

وَلَقِيتُ عِنْدَهَا حُظْوَةً (حَظًّا)، فَأَحْبَبْتَنِي، وَعَيْنَيْتُ بِأَمْرِي، وَلَمْ تَأَلْ جُهْدًا فِي الْإِحْسَانِ
إِلَيَّ. وَأَبَتْ أَنْ تُتَادِنَنِي إِلَّا بِأَحَبِّ الْأَلْقَابِ وَالْكُنَى إِلَيَّ. فَأَخْتَارْتُ لِي كُنْيَةً تُطْلِقُهَا عَلَيَّ،
لِتَكْرَمَنِي بِهَا، وَتُكَبِّرَ مِنْ شَأْنِي، فَصَارَتْ تَدْعُونِي «أَبَا تَوَلِّبَ» — مُنْذُ حَلَلْتُ عِنْدَهَا —
وَهِيَ أَحَبُّ كُنْيَةٍ يَعْتَرِّ بِهَا جِنْسُنَا النَّافِعُ الْكَرِيمُ: مِنْ بَنَاتِ «شَحَاجٍ» وَ«زِيَادٍ» وَأَبْنَائِهِمَا
الْأَعْرَاءِ.

(٢٧) لَيْلَةُ الْحَرِيقِ

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ هَنِيئَةً مُتَعَابَةً، وَسَيِّدَتِي «إِحْسَانُ» تَزِيدُنِي — مِنْ بَرِّهَا وَعَظْفِهَا — مَا يَبْهَجُ نَفْسِي، حَتَّى حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ (مَا لَمْ يَخْطُرْ عَلَى الْبَالِ، وَلَمْ يَدُرْ بِالظَّنِّ).
فَفِي ذَاتِ لَيْلَةٍ، انْتَبَهْتُ (اسْتَيْقَظْتُ) مِنْ نَوْمِي مُتَفَرِّعًا مَدْعُورًا، وَسَمِعْتُ صِيحَاتٍ عَالِيَةً تَنْبِئُ مَدْوِيَّةً فِي الْفَضَاءِ، تُرَدُّ: «الْحَرِيقُ. الْحَرِيقُ». وَرَأَيْتُ دُخَانًا وَنَارًا يَنْبُعَتَانِ عَلَى مَسَافَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ. فَتَفَرَّعْتُ وَهَالَيْتُ (فَزَعْنِي) مَا أَنَا قَادِمٌ عَلَيْهِ.
وَأَسْرَعْتُ إِلَى الْحَبْلِ — الَّذِي شَدُّونِي بِهِ إِلَى الْمُرْبِطِ — فَقَرَضْتُهُ بِأَسْنَانِي عَلَى عَجَلٍ.
وَحَاوَلْتُ الْخُرُوجَ مِنَ الْحَظِيرَةِ (الزَّرِيْبَةِ). فَرَأَيْتُ بَابَهَا مُغْلَقًا (مُقْفَلًا). فَذَكَرْتُ — حِينَئِذٍ — سَيِّدَتِي «إِحْسَانُ». وَدَهَشْتُ كَيْفَ تَنْسَانِي فِي وَقْتِ الشَّدَّةِ، وَتَذَكَّرُنِي فِي سَاعَاتِ الرَّخَاءِ.

(٢٨) سَاعَةُ الْخَطَرِ

وَمَا كَادَ يَمُرُّ بِبَالِي هَذَا الْخَاطِرُ حَتَّى رَأَيْتُهَا تَفْتَحُ بَابَ الْحَظِيرَةِ، وَتَخْرُجُ بِي مُسْرِعَةً إِلَى الْخَلَاءِ. كَيْفَ أُنْسَى لَهَا ذَلِكَ الصَّنِيعَ (الْمَعْرُوفَ)؟ لَقَدْ جَازَفْتُ (خَاطَرْتُ) بِنَفْسِهَا — فِي سَبِيلِ إِنْقَازِي — وَعَرَّضْتُ حَيَاتَهَا لِلْهَلَاكِ، لِتُنَجِّيَنِي مِنْ عَذَابِ الْحَرِيقِ. وَاشْتَدَّ اللَّهْبُ، وَاقْتَرَبَ الْخَطَرُ مِنْ كَلِينَا، وَكَادَتِ النَّارُ تَكْتَنِفُنَا (تُحِيطُ بِنَا) مِنْ كُلِّ مَكَانٍ.

(٢٩) مَنَاطِقَةُ اللَّهَبِ

وَأُغْمِي عَلَى الصَّبِيَّةِ — مِنْ هَوْلٍ مَا تَعَرَّضْتُ لَهُ — وَكَادَ يَخْنُقُهَا الدُّخَانُ. فَلَمْ أَجِدْ مَنَاصًا (مَفَرًّا) مِنَ التَّشَبُّثِ (التَّعْلُقِ) بِثِيَابِهَا، وَالْقَبْضِ بِأَسْنَانِي عَلَى جِلْبَابِهَا، وَالْجَرِيِّ بِأَقْصَى مَا أَسْتَطِيعُ مِنْ سُرْعَةٍ، وَأَنَا أَحْذَرُ — جُهْدَ طَاقَتِي — أَنْ تَعْلُقَ النَّارُ بِأَطْرَافِ ثَوْبِهَا، وَأَتَمَنَّى لَوْ فَدَيْتُهَا بِنَفْسِي مِنَ الْهَلَاكِ.

(٣٠) النَّجَاةُ مِنَ الْحَرِيقِ

وَمَا زِلْتُ أَجْرِي حَتَّى اجْتَرْتُ — بِحَمْدِ اللَّهِ وَتَيْسِيرِهِ — مِنْطَقَةَ اللَّهَبِ، وَوَضَعْتُهَا إِلَى جَانِبِ جَدُولٍ مِنَ الْمَاءِ. فَلَمْ تَلْبَثِ الصَّبِيَّةُ أَنْ أَفَاقَتْ مِنْ إِعْمَائِهَا، وَشَكَرَتْ لِي مَا أَسَدَيْتُ إِلَيْهَا مِنْ صَنِيعٍ (مَا قَدَّمْتُهَ لَهَا مِنْ مَعْرُوفٍ)، وَأَنَا أَوْدُ لَوْ أَسْتَطِيعُ الْكَلَامَ، فَأَصُوغَ لَهَا — مَا هِيَ أَهْلُهُ مِنَ الثَّنَاءِ وَالشُّكْرِ — عَلَى مَا أَسْلَفْتُ إِلَيَّ مِنْ جَمِيلٍ لَا أَنْسَاهُ مَا حَيَّيْتُ.

(٣١) نَوْمٌ عَمِيقٌ

وَمَا زَالَتِ النَّارُ تَشْتَعِلُ، حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى كُلِّ مَا تَحْوِيهِ الضَّيْعَةُ مِنْ دُورٍ وَحَظَائِرٍ (بُيُوتٍ وَزَرَائِبٍ).

وَكَانَتْ لَيْلَةً هَائِلَةً (مُخِيفَةً). فَلَمْ تَلْبَثْ «إِحْسَانُ» أَنْ نَامَتْ عَلَى الْحَشَائِشِ لِتَسْتَرِيحَ مِمَّا بَذَلَتْهُ مِنْ عَنَاءٍ. ثُمَّ أَخَذْتَنِي سَنَةٌ مِنَ النَّوْمِ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ اسْتَسَلَمْتُ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ. وَمَا زِلْنَا نَائِمَيْنِ حَتَّى لَاحَ ضَوْؤُ الْفَجْرِ، فَاسْتَيْقَظْتُ. وَرَأَيْتُ الصَّيْحَاتِ قَدْ هَدَأَتْ وَالنِّيرَانَ قَدْ خَمَدَتْ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى أَيقَظْتُ سَيِّدَتِي. فَلَمَّا أَفَاقَتْ ذَهَبْنَا مَعًا إِلَى وَالِدَيْهَا، فَأَبْتَهَجَا لِنَجَاتِهَا. وَنَسِيََا مَا أَلَمَ بِهِمَا مِنَ الْخَسَارَةِ، وَكَانَا قَدْ يَبْسَا مِنْ عَوْدَتِهَا إِلَيْهِمَا، وَحَسِبَاهَا ذَهَبَتْ طَعَامًا لِلنَّارِ.

(٣٢) خَرَابُ الضَّيْعَةِ

وَكَانَتْ هَذِهِ الصَّبِيَّةُ ضَعِيفَةً الْجِسْمِ، تَنْتَابُهَا الْأَمْرَاضُ — بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ — وَقَدْ أَسْلَمَهَا الْجُهْدُ (شِدَّةُ التَّعَبِ) إِلَى الْحُمَى. فَاشْتَغَلَ أَهْلُهَا بِأَمْرِهَا، وَقَرَّرُوا الْعَوْدَةَ بِهَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُشْرِفَ الْأَطِبَاءُ عَلَى فَتَاتِهِمْ، وَيَعْنُوا بِشِفَائِهَا. وَأَقْفَرْتُ (خَلْتُ) الضَّيْعَةَ مِنْ سَاكِنِيهَا، وَنَسُوا أَمْرِي، فَلَمْ أَجِدْ لِي — فِي غَيْرِ الْغَابَةِ — مَأْوَى، حَتَّى لَا أَهْلِكَ عَطَشًا وَجُوعًا. وَهَكَذَا مَرَّتْ بِي ذِكْرِيَّاتٌ كَثِيرَةٌ مُتَعَاقِبَةٌ، بَعْضُهَا مُؤَلِّمٌ بَغِيضٌ، وَبَعْضُهَا سَارٌّ بِهِيْجٌ.

(٣٣) مُبَارَاةُ الْحَمِيرِ



وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ يَوْمَ السَّبَاقِ فِي بَعْضِ الْقُرَى. فَقَدِ اشْتَرَكْتُ فِي مُبَارَاةٍ لَا يَقِلُّ مَنْ
اشْتَرَكَ فِيهَا مِنَ الْحَمِيرِ عَنْ سِنَةِ عَشْرٍ. وَسَبَقْتُهَا جَمِيعًا، حَتَّى — إِذَا قَارَبْتُ آخِرَ الشَّوْطِ —
أَسْرَعَ إِلَيَّ حِمَارٌ شَرِسٌ غَضُوبٌ، فَنَفَسَ عَلَيَّ ذَلِكَ (حَسَدَنِي، وَلَمْ يَزِنِي أَهْلًا لَهُ)، وَغَاضَهُ
مَا كِدْتُ أَظْفَرُ بِهِ مِنْ شَرَفِ السَّبْقِ، فَعَضَّ ذَيْلِي عَضَّةً كَادَتْ تُذْهِلُنِي (تَنْسِينِي). وَلَكِنِّي
— عَلَى فَرْطِ مَا أَحْسَسْتُهُ مِنْ أَلَمٍ — ضَاعَفْتُ مِنْ سُرْعَتِي حَتَّى سَبَقْتُ كُلَّ مُنَافِسٍ تَصَدَّى
(تَعَرَّضَ) لِسَبَاقِي.

(٣٤) سِجَارٌ مَعَ كَلْبَيْنِ

وَرَأَيْتُ — ذَاتَ يَوْمٍ — كَلْبَيْنِ كَبِيرَيْنِ يُطَارِدَانِ وَلَدًا مِنْ أَبْنَاءِ الْجِيرَانِ، وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ
يَتَسَلَّقَ شَجَرَةً قَرِيبَةً مِنْهُ لِيَنْجُوَ مِنْ أَذَاهُمَا. فَعَضَضْتُ أَكْبَرَهُمَا عَضَّةً أَوْشَكَتُ أَنْ تُؤْدِيَ بِهِ
(كَادَتْ تُهْلِكُهُ). وَرَأَيْتُ الثَّانِي يُسْرِعُ إِلَى الطِّفْلِ، فَيَجْرُهُ بِأَسْنَانِهِ مِنْ تِيَابِهِ. وَكَانَ الطِّفْلُ



يُحَاوِلُ — حِينَئِذٍ — أَنْ يَتَسَلَّقَ الشَّجَرَةَ، فَأَمْسَكَتْ ذَيْلُهُ بِأَسْنَانِي لِأَعْجَزَهُ عَنِ الْهَرَبِ، ثُمَّ
عَضَّضَتْهُ فِي وَجْهِهِ عَضَّةً كَادَتْ تَقْتُلُهُ.
فَشَكَرَ لِي ذَلِكَ الصَّبِيِّ مَا أَسَدَيْتُ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيلٍ. وَقَصَّ عَلَى إِخْوَانِهِ مَا حَدَثَ، فَازْدَادَ
حُبُّهُمْ إِيَّايَ، وَتَعَلَّقُوا بِمِي، مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

كَلِمَاتُ الْقِصَّةِ

«نُتِبْتُ — فِي هَذِهِ الصَّفَحَاتِ — طَائِفَةً مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي مَرَّتْ بِالْقَارِئِ مُفَسَّرَةً، لِيَسْهُلَ عَلَيْهِ مُرَاجَعَتُهَا وَاسْتِذْكَارُهَا، مَتَى شَاءَ.»

شُخُوصُ الْمَسَلَةِ: أَشْخَاصُ الْكُومِدْيَا.

بَرَّحَ بِهِ التَّعَبُ: آذَاهُ أَذَى شَدِيدًا.

إِقْظَاظَكَ مِنْ سُبَاتِكَ: تَنْبِيْهُكَ مِنْ نَوْمِكَ.

ظَلَلْنَا نَمْرُحُ: أَشْتَدَّ فَرْحُنَا وَنَشَاطُنَا حَتَّى جَاوَزَا الْقَدْرَ.

الْجَبَلُ الشَّامِخُ: الشَّدِيدُ الِارْتِفَاعِ.

كَرِشُهُ: مَعِدَتُهُ (وَالْكَرِشُ — لِذِي الْخَفِّ وَالظَّلْفِ وَكُلِّ مُجْتَرٍّ — بِمَنْزِلَةِ الْمَعِدَةِ لِلْإِنْسَانِ).

وَاجِمٌ: سَاكِتٌ عَابِسُ الْوَجْهِ مُغْتَمٌ.

غَائِلَةُ الْبَرْدِ: شِدَّتُهُ الْمُهِلِكَةُ.

مَتَلَّوْا بِهِ: صَنَعُوا بِهِ مِنَ السُّوءِ مَا يَلْفُتُ النَّظَرَ.

يَسْتَأْتِرُ بِهَا: يَنْفَرِدُ بِهَا: يَخْصُ نَفْسَهُ بِهَا.

كَاسِفُ الْبَالِ: سَيِّئُ الْحَالِ.

خَيْلَاوُهُ: إِعْجَابُهُ بِنَفْسِهِ وَكِبْرِيَاؤُهُ.

أَمْخَضَهُ الْحُبُّ: أَخْلَصَ لَهُ الْوُدَّ.

اَعْتِيَابُهُ وَتَنَقُّصُهُ: التَّحَدُّثُ فِي غَيْبَتِهِ بِمَا يَعْيبُهُ.
الْكَلَالِيْبُ: حَدَائِدُ مُلْتَوِيَةِ الرَّأْسِ.
لَا قَبْلَ لَهُ بِهِ: لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ.
الْمَنَاقِعُ: جَمْعُ مُسْتَنْقَعٍ، أَيُّ: مَكَانٌ يَلْتَقِي فِيهِ الْمَاءُ وَيَكْتَثُرُ.
خَبِيرٌ بِمَصِيرِي: عَارِفٌ غَايَةَ أَمْرِي حَقَّ الْمَعْرِفَةِ.
مُتَكَنِّزُ اللَّحْمِ: لَحْمُهُ مُتَجَمِّعٌ مُتَصَلِّبٌ.
لَمْ تُسَدِّ إِلَى أَحَدٍ: لَمْ تُقَدِّمْ لَهُ.
فِنَاءُ الدَّارِ: السَّاحَةُ الَّتِي أَمَامَهَا.
مَصَارِعُهُمْ وَشَيْكُهُ: أَيَّامُ ذُبْحِهِمْ قَرِيبَةٌ.
بَلَوْتُ: جَرَّبْتُ وَاخْتَبَرْتُ.
لَا يَتَأَثَّمُونَ: لَا يَكْفُونَ عَنِ الْإِثْمِ.
كَادِحٌ: جَاهِدُ نَفْسَهُ فِي الْعَمَلِ.
يُوقِرُ لَنَا السَّعَادَةَ: يُكَثِّرُهَا لَنَا.
سِيَاطٌ: جَمْعُ سَوْطٍ وَهُوَ: مَا يُضْرَبُ بِهِ مِنْ جِلْدٍ أَوْ غَيْرِهِ.
يَحْتَنُنِي عَلَى الْعُدُوِّ: يَدْعُونِي إِلَى سُرْعَةِ الْجَرِيِّ.
وَشَيْبٌ سَوْطِيهِ: طَرَفُهُ.
يُرْجَلُونَ شَعْرَهُ: يَمْشُطُونَهُ.
تَرِيثٌ: تَمَهَّلَ وَانْتَظَرَ.
يَتَصَايَحُونَ: يَصِيحُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ.
جَادَةُ الْأَدَبِ: طَرِيقُهُ.
تَشْجُو السَّامِعِينَ: تَحْزِنُهُمْ.

اللَّيْلُ الْغَاسِقُ: الشَّدِيدُ الظَّلَامُ.
 الْوَثِيرُ: اللَّيْنُ النَّاعِمُ.
 الدَّعَةُ: الْهُدُوءُ وَالسَّكِينَةُ.
 الظَّلَامُ الْحَالِكُ: الشَّدِيدُ السَّوَادِ.
 كَرَمٌ غُنْصِرِهِ: طَيِّبٌ أَصْلِهِ.
 أَصْفَيْنَاهُ الْوُدَّ: صَدَقْنَاهُ الْإِحَاءَ.
 عَمَرَهُ بِأَيَادِيهِ: بَالَعَ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَأَعْدَقَ عَلَيْهِ صَنَائِعَهُ وَنِعَمَهُ.
 تَرْبِيَتُ ظُهُورِهِمْ: مَسَّهَا بِالْيَدِ تَحَبُّبًا إِلَيْهِمْ وَاسْتِجْلَابًا لِمَوَدَّتِهِمْ.
 أَنْقَذَهُ مِنْ غَائِلَةِ الْبَرْدِ الْقَارِسِ: نَجَّاهُ مِنْ شِدَّتِهِ الْمُهْلِكَةِ.
 أَضْنَاهُ: أَسْقَمَهُ وَأَمْرَضَهُ.
 الْوَادِعَةُ: السَّكِينَةُ الْهَادِئَةُ.
 تَشَعَّتْ جِلْدُهُ: تَفَرَّقَ شَعْرُهُ.
 نَسَلَ الصُّوفُ: انْتَفَشَ وَسَقَطَ.
 أَشْتَاتُ الْقَشِّ: مُتَفَرِّقَاتُهُ.
 بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا: جَاوَزَ السَّنَّ الْمَأْلُوفَةَ.
 هَلَكَ سَغْبًا: مَاتَ جَوْعًا.
 أَعْمَالُ جِسَامٍ: عَظِيمَةُ خَطِيرَةِ الشَّانِ.
 هَدَّاتِ الْجَلْبَةِ: سَكَنَتِ الضَّجَّةُ.
 حَالَفَهُ السُّهَادُ: صَاحَبَهُ السَّهْرُ.
 بَقِيَتْ جَائِمَةً: لَزِمَتْ مَكَانَهَا فَلَمْ تَتْرُكْهُ.
 الْغِلَاطُ الْأَكْبَادُ: الْقُسَاةُ الْقُلُوبِ.
 الشُّتَاءُ الْقَارِسُ: الشَّدِيدُ الْبَرْدِ.

مَغْلُوبٌ عَلَى أَغْصَابِهِ: سَرِيعُ الْهِجَاجِ.
مِنْ عِتَاقِ الْخَيْلِ: مِنَ الْأَفْرَاسِ الْكَرِيمَةِ.
حَاوَلَ إِمْكَانَهُ: بَذَلَ جُهِدَهُ.
فَرَطُ الْإِغْيَاءِ: شِدَّةُ التَّعَبِ.
النُّتُوءَاتُ: رُءُوسُ الْأَحَادِيدِ.
الْأُخْدُودُ: الشَّقُّ.
تُسَلِّفُ بِهَا الْأَرْضُ: تُسَوِّي بِهَا.
يُوقِّرُ زَادَهُ: يُكَثِّرُ قُوَّتَهُ.
فِي عَدِهِ: فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ.
حَفْنَةً: مِقْدَارُ مَلءِ الْكَفِّ.
يَحْسُسُهُ: يَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ.
جَنْ نَسَاطِهِ: عُنُقَوَانِهِ وَقُوَّتِهِ.
مَا نَاءَ بِهِ احْتِمَالُهُ: مَا لَمْ يُطِقْ حَمْلَهُ.
الْجَوْ صَحْوٌ: سَمَاؤُهُ صَافِيَةٌ لَا غَيْمَ فِيهَا.
يَرْقُدُ شَيْئًا: يَنَامُ بَعْضَ الْوَقْتِ.
غَذَّتْهُ بِلْبَانِهَا: رَبَّتْهُ بِلَبَنِهَا.
لَبِثَ شَيْئًا: مَكَثَ زَمَنًا قَلِيلًا.
اسْتَمَرَّأَ دَرَهَا: اسْتَطَابَ لَبَنَهَا.
الدَّسِمُ: الْكَثِيرُ السَّمَنِ.
الْحَافِرُ: الظِّلْفُ غَيْرُ الْمَشْقُوقِ.
الظِّلْفُ: الْحَافِرُ الْمَشْقُوقُ.
الْبَسَائِطُ: الْمَعْلُومَاتُ الْأَوَّلِيَّةُ.

تَمَلَّكَهُ الْعَجَبُ: اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ.

أَنْيَابُ: أَسْنَانٌ مُدَبَّيَّةٌ.

يَقْضُمُ الْحَشَائِشَ: يَكْسِرُهَا بِأَطْرَافِ أَسْنَانِهِ.

دَمَائَةُ الْخُلُقِ: لِينُ الطَّبْعِ.

نَقَاءُ السَّرِيرَةِ: صَفَاءُ السِّرِّ الَّذِي يُضْمِرُهُ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ.

شَدَّ مَا اخْتَلَفَ الْقِسْمُ: مَا أَبْعَدَ نَصِيبَ هَذَا مِنْ ذَاكَ.

أَحْدَثُ: أَحْوَالٌ وَشُئُونٌ.

يَخْلُتُهُ: مَا يُخْفِيهِ فِي قَرَارَةٍ نَفْسِهِ.

تَفَرَّسَتْ: دَقَّقَتْ النَّظَرَ.

انْسِجَامُ جِسْمِهِ: انْتِظَامُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ.

الْغَابِرَةُ: الْقَدِيمَةُ الْمَاضِيَّةُ.

نَمَوْتُ: ازْدَادَ حَجْمُ جِسْمِي.

قَسَرًا: كَرْهًا وَاعْتِصَابًا.

الْوِهَادُ: الْأَرَاضِي الْمُنْخَفِضَةُ.

مَرَاوَلَتُهُ: عَمَلُهُ وَالْقِيَامُ بِهِ.

رَأَيْتُهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ: رَأَيْتُهُ أَوَّلَ شَيْءٍ رَأَيْتُهُ.

أَخْتَلَسَ بَعْضُ النَّظَرَاتِ: أَخْطَفُفَهَا بِسُرْعَةٍ عَلَى غَفْلَةٍ.

سَارَ قُدَمًا: سَارَ بِلَا التَّوَأءِ إِلَى الْأَمَامِ.

نَاجٍ: خَالِصٌ مِنَ الْأَذَى.

أَرَزَى لِحَالِهِ: أَرَقُّ وَأَعْطَفُ.

الْمُعْدِنِيُّونَ: الْمُشْتَغِلُونَ بِاسْتِخْرَاجِ الْمَعْدِنِ.

الْمُنْجَمُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ الْمَعَادِنُ.

رَشِيقٌ: خَفِيفُ الْحَرَكَةِ.
هَمَسَ: تَحَدَّثَ بِصَوْتٍ خَفِي.
سَيِّدَةٌ نَصَفٌ: امْرَأَةٌ وَسَطُ بَيْنِ الْحَدَثَةِ وَالْمُسِنَّةِ.
الصَّرَاطُ السَّوِيُّ: الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ.
لَمْ يَأُلْ جُهْدًا: لَمْ يَقْصُرْ.
أَعْرَجُ بِهَا: أَمِيلُ بِهَا مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ.
يُقِيمُ أَوْدَهُ: يُزِيلُ تَعَبَهُ.
الْمَحَفَّةُ: مَرْكَبٌ لِلنِّسَاءِ كَالْهُوْدَجِ، إِلَّا أَنَّهَا لَا قُبَّةَ لَهَا.
الْمَاءُ النَّمِيرُ: النَّاجِعُ الزَّاكِي.
لَمْ يَذُرْ بِخَلْدِي: لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِي.
اعْتَسَفَ: سَارَ فِي الطَّرِيقِ عَلَى غَيْرِ هُدًى.
تَوَسَّيْنِي: تَوَصَّيْنِي بِالصَّبْرِ.
جَلِيَّةُ الْأَمْرِ: حَقِيقَةُ الْخَبَرِ.
النَّفَايَاتُ: رَدْيُ الْأَشْيَاءِ.
الْإِعْنَاتُ: الْمَشَقَّةُ وَالْجَهْدُ وَالشَّدَّةُ.
عَلَى عِلَاتِهِ: عَلَى كُلِّ حَالٍ.
يُرْهَقُهُ: يَحْمِلُهُ عَلَى مَا لَا يُطِيقُ.
مَا يَنْوُءُ بِهِ: مَا يُعْجِزُهُ.
يَتَحَاوَرُونَ: يُنَاقِشُونَ.
سَيِّدُ الدَّسْكَرَةِ: صَاحِبُ الْمَرْزَعَةِ.
أَفْضُوا إِلَيْهِ: أَخْبَرُوهُ.

تَرَبَّصْ بِهِ: اُنْتَظِرْ بِهِ وَصَبِرْ عَلَيْهِ.
 لَمْ يَبْشُوا: لَمْ يَفْرَحُوا.
 بَدَتْ عَلَى سِيَمَاهُمْ: ظَهَرَتْ عَلَى مَرَأَهُمْ.
 لَمْ يَرِ بُدًّا: لَمْ يَجِدْ مَفْرًا.
 غَاضَ الْمَاءُ: غَارَ فَذَهَبَ فِي الْأَرْضِ.
 لَا تُغْصَنَ عَيْشُهُمْ: لَا تُكَدَّرَنَّ حَيَاتُهُمْ.
 لَا تُشْقِيَهُمْ بِي، كَمَا أَشَقَوْنِي بِهِمْ: لَا جَلِبْنَ عَلَيْهِمُ الشَّقَاءَ كَمَا جَلَبُوهُ عَلَيَّ.
 التَّنْكِيلُ بِهِمْ: إِيدَاؤُهُمْ.
 مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ: مَا لَمْ يَخْطُرْ عَلَى الْبَالِ، وَلَمْ يَدُرْ بِالْظَّنِّ.
 نَفْسُهُ عَلَيْهِ: حَسَدُهُ وَلَمْ يَرَهُ أَهْلًا لَهُ.
 أَوْسَكْتَ أَنْ تُودِيَ بِهِ: كَادَتْ تُهْلِكُهُ.
 زَعِيمَةٌ: كَفِيلَةٌ.
 صَلَفٌ: كِبَرٌ.
 يَأْبَهُ: يَهْتَمُّ.
 عَصَاضَةٌ: ذِلَّةٌ.
 حُبٌّ جَمٌّ: كَثِيرٌ.
 قَسْطُهُ: نَصِيْبُهُ.
 الرَّجْسُ: الْقَذَرُ.
 مُتَبَطِّلٌ: مُنْعَطِلٌ.
 نَقْهَرُ: نَغْلِبُ.
 بَعْيًا: ظُلْمًا.
 أُدْنُ: اقْتَرَبُ.

عَدُوٌّ: جَرِيٌّ.
الْبَيْثِي: امْكُثِي.
سَمِيحٌ: قَبِيحٌ.
قَاطِبَةٌ: جَمِيعًا.
أُبَاهِي: أَفَاخِرُ.
شُهُدٌ: عَسَلٌ.
لَا عَرُوزَ: لَا عَجَبَ.
يُرْقَهُ: يُخَفِّفُ.
دَائِبَةٌ: مُسْتَمِرَّةٌ.
هَالَهُ: فَزَعَهُ.
الْحَوْرُ: الضَّعْفُ.
صَحْبٌ: ضَجَّةٌ.
أَنْكَرْتُهُ: جَهِلْتُهُ.
إِجْهَادُهُ: إِتْعَابُهُ.
يُنْشَعُ: يَنْشُرُ شُعَاعَهُ.
قِمَّةُ الْجَبَلِ: أَعْلَاهُ.
عَوَّرَهَا: جَعَلَهَا عَوْرَاءَ.
شَرَّةٌ: شَدِيدُ الْحَرِصِ.
أَلْفِيكَ: أَلْفَاكَ، أَجِدُكَ.
أَجَلْتُ: أَدْرْتُ.
لَا يَفْتُرُونَ: لَا يَهْدَأُونَ.
يَكْتَنِفُهُ: يُحِيطُ بِهِ.
عُمَّرَ: طَالَتْ حَيَاتُهُ.

ضَرْعُ: تَذِي.

أَظْلَافُ: حَوَافِرُ.

مُفْقِضُ: مُحَدِّثٌ وَمُخْبِرٌ.

حِوَارُ: مُنَاقَشَةٌ.

بِحَسْبِهِ: يَكْفِيهِ.

التَّوَدُّدُ: التَّحَبُّبُ.

الدَّسْكَرَةُ: الْمَرْعَةُ.

مُضْنٍ: مُمْرِضٌ.

أَخْلَدُ: أَسْكُنُ.

يُكَدِّحُ: يُجَاهِدُ.

لَمْ يَفْطُنْ: لَمْ يَنْتَبِهْ.

مُتَخَلِّفَةٌ: مُتَأَخِّرَةٌ.

الْعَنَاءُ: التَّعَبُ.

يُجْدِي: يُفِيدُ.

الثَّرَى: الْأَرْضُ.

مُدْيَةٌ: سَكِينٌ.

يُسَاوِرُ: يُغَالِبُ.

يَكْفُ: يَمْتَنِعُ.

خَارَتْ: ضَعُفَتْ.

حَلَدَهُ: قَلَبَهُ.

وَقَرَّ: أَثَرَّ.

التَّزْفِيَةُ: التَّخْفِيفُ.

يَرْكُلُ: يَرْفُسُ.
الضُّنُّ: الْبُحْلُ.
الْعِرَاءُ: الْخَلَاءُ.
الْأَنَاسِي: النَّاسُ.
الْكَرْى: النَّوْمُ.
أَرِقُّ: ذَهَبَ نَوْمُهُ.
النَّائِيَّةُ: الْبَعِيدَةُ.
الدَّانِيَّةُ: الْقَرِيبَةُ.
عُدْنَ: ارْجَعْنَ.
الْمَلَاذُ: الْمَلَجَا.
يُلُوْحُ: يَبْدُو.
ثَمَّةٌ: هُنَاكَ.
نَاءٌ: بَعِيدٌ.
رَدَحٌ: مَدَّةٌ.
الشَّعْنَاءُ: الْمَفْرَقَةُ.
سِيءٌ وَجْهُهُ: قَبَحٌ.
مُتَجَهِّمٌ: عَابِسٌ مُتَغَيِّرٌ.
أَوْفَى: أَشْرَفَ.
أَرْتَادُهَا: أَسِيرُ فِيهَا.
الْوَعْرَةُ: الصَّعْبَةُ.
يُمَارِسُ: يُعَالِجُ.
ارْتَقَاوُهَا: الصُّعُودُ فِيهَا.
أَرَأْفُ: أَكْثَرُ رَحْمَةً.

التَّرِيْتُ: الْإِبْطَاءُ.
حَسِبَ: ظَنَّ.
بَيَّنَّ: وَاضَحُ.
نَقَمَ: كَرِهَ وَأَنْكَرَ.
دَانَاهُ: قَرُبَ مِنْهُ.
مُتَتَابِعَةٌ: مُتَتَابِعَةٌ.
رَاعَهُ: أَفْرَعَهُ.
جَسَدُهُ: جِسْمُهُ.
أَهْوَى: نَزَلَ.
أَتَرَوَى: أَتَفَكَّرُ.
أَبْغَى: أَطْلُبُ.
مُرْتَاعٌ: خَائِفٌ.
مَرَانَةٌ: تَمْرِينٌ.
الْقِمَّةُ: رَأْسُ الْجَبَلِ.
سَلَفَتْ: مَضَتْ.
الْأَسْعَتْ: الْمَفَرُّ.
سِيَاحٌ: سُورٌ.
تُقْضَى إِلَيْهِ: تُخْبِرُهُ.
كَابَدَ: قَاسَى وَعَانَى.
كَوَارِثٌ: مَصَائِبٌ.
مُتَرَوٍّ: مُتَأَنٍّ مُفَكِّرٌ.
يَسْتَقِلُّهَا: يَرْكَبُهَا.

يُرْهِقُهَا: يُجْهِدُهَا.
أَتَانُ: حِمَارَةٌ.
الْمُتَوَقُّونَ: الْمَيِّتُونَ.
لَا رَيْبَ: لَا شَكَّ.
ابْتَدَرَهُ: أَسْرَعَ إِلَيْهِ.
يَمْتَعُ: يَنْعَمُ.
قَصِيَّةٌ: بَعِيدَةٌ.
لَمْ يُحِزْ: لَمْ يَرُدَّ، لَمْ يُرْجَعْ.
بَدَتْ: ظَهَرَتْ.
يَنْتَحِي: يَقْصِدُ.
دَانَيْتُهُ: قَارِبَتُهُ.
يَبْدُو: يَظْهَرُ.
انْصَرَمَ: انْتَهَى.
قَارِسٌ: شَدِيدٌ.
قَاتِمٌ: مُظْلِمٌ.
يُؤْثِرُنِي: يُفَضِّلُنِي.
جَنَّ اللَّيْلُ: أَظْلَمَ.
يُجَلِّلُهُ: يُعْطِيهِ.
هَشَّتْ: فَرِحَتْ.
الْغَابِرَاتُ: الْقَدِيمَاتُ.
الْقُدَامَى: الْقَدَمَاءُ.
أَغْفَلَ: تَرَكَ.
قَوَائِمُ: أَقْدَامُ.

الْغَزِيرُ: الْكَثِيرُ.

خَلِيقَةُ: جَدِيرَةٌ.

أَبْتَهَجُ: أَفْرَحُ.

يَتَهَافَتُ: يَتَسَاقَطُ.

مُنَوَّدٌ: مُتَحَبَّبٌ.

وَثِيرٌ: لَيِّنٌ.

مُدَاعِبُ: مُمَارِحُ.

يَافِعُ: شَابُّ نَاشِئٍ.

لَا يَنِي: لَا يَكْسَلُ.

حَدَبٌ: تَعَطُّفٌ.

قَسَامَةٌ: حُسْنٌ.

أَدْنَاهَا: أَقْرَبُهَا.

نَبَالَةُ خُلُقِهِ: نَجَابَتُهُ.

مَحْضُنَاهُ: أَخْلَصْنَا لَهُ.

الْوَفِيرُ: الْكَثِيرُ.

الطَّارِقُ: الزَّائِرُ.

جَلِيَّةُ الْحَبَرِ: حَقِيقَتُهُ.

تَسْتَحِجُّهُ: تَسْتَعِجِلُّهُ.

أَغْنِي: أَقْصِدُ.

مَذْعُورٌ: خَائِفٌ.

عَهْدٌ: زَمَنٌ.

جَلَبَ: أَحْضَرَ.

الْعَنَاءُ: التَّعَبُ.

قَصِي: بَعِيدٌ.

يَكْتَنِفُهَا: يُحِيطُ بِهَا.

حَسِبَ: ظَنَّ.

مَيِّمٌ: قَاصِدٌ.

دَانَيْتُهَا: قَرُبْتُ مِنْهَا.

الْبَهْجَةُ: الْفَرْحُ.

سِيَاجٌ: سُورٌ.

طَائِلٌ: فَائِدَةٌ.

أَفَلَتَ: هَرَبَ.

جِبَالَتُهُ: شَبَكَّتُهُ.

أَبْصَارُ: أَنْظَارُ.

هَالَهُ: خَوَّفَهُ وَفَزَعَهُ.

دِرَّتُهُ: سَوَطُهُ.

غَلِيلٌ: غَيْظٌ.

أَحْفَظُهُ: جَعَلَهُ يَحْقِدُ.

تَمَادَى: اسْتَمَرَ.

الْإِزْرَاءُ: التَّنْقِصُ.

تَسْنَحُ: تَعْرِضُ.

الزَّادُ: الطَّعَامُ.

اسْتَرَدَّ: اسْتَرْجَعَ.

مُثِّلَ: صُوِّرَ.

حُظْوَةٌ: حَظٌّ.

تُنَاهِزُ: تُقَارِبُ.

عَمَدَ: قَصَدَ.

الْتَقَتِيرُ: الْبُخْلُ.

حَقُضٌ: لِينٌ.

تَرَبَّصَ: اِنْتَظَرَ.

تَحَقَّرَ: تَهَيَّأَ لِلْوُثُوبِ.

ذَاتُ الْفِقَارِ: الْعَقْرَبُ.

رُبَانَى الْعَقْرَبِ: قَرْنُهَا.

تَنْهَالُ: تَتَتَابَعُ.

إِثْمٌ: ذَنْبٌ.

بَلَا طَائِلَ: بِغَيْرِ فَائِدَةٍ.

أَعْدُو: أَجْرِي.

لَاخَ: ظَهَرَ.

اِقْتَفَاهُ: تَتَبَعَهُ.

يَمْمُتُهُ: قَصَدْتُهُ.

يَذْهَمُهُ: يَغْشَاهُ.

تَلَكَّأَ: أَبْطَأَ وَتَوَقَّفَ.

سَبَحَ: عَامَ.

الْأَثِيمُ: الْمُذْنِبُ.

تَأَكَّدَ لَهُ: ثَبَتَ.

آثَرَ: اخْتَارَ.

سِيَمَاهَا: مَرَّاهَا.

ارْتِيَابٌ: شَكٌّ.

مُدَاعَبَةٌ: مُمَارَحَةٌ.

أَرْجَاؤُهُ: نَوَاحِيهِ.

رِفَاقٌ: صِاحِبٌ.

الْعُرْبِدُ: الْحَيَّةُ.

مُتَدَاعٍ: مُتَهَدِّمٌ.

لَا أَهْوِي: لَا أَسْقُطُ.

انْتَبَهْتُ: اسْتَيْقَظْتُ.

الْحَظِيرَةُ: الزَّرِييَّةُ.

مُغْلَقٌ: مُقْفَلٌ.

الصَّنِيعُ: الْمَعْرُوفُ.

جَاوَزَ: خَاطَرَ.

لَا مَنَاصَ: لَا مَفَرَّ.

التَّشَبُّثُ: التَّلَقُّقُ.

أَسْدَى: قَدَّمَ.

الْجَهْدُ: شِدَّةُ التَّعَبِ.

أَقْفَرُ: خَلَا.

تَذْهِلُهُ: تُنْسِيهِ.

تَصَدَّى: تَعَرَّضَ.

